إبراهيم عبد القادر المازني

رحلة إلى الحجاز

رحلة إلى الحجاز

تأليف
إبراهيم عبد القادر المازني

هنداوي

رحلة إلى الحجاز

إبراهيم عبد القادر المازني

رقم إيداع ١٥٢٧٨ / ٢٠١٢
تدمك: ١ ٠٣١ ٦٤١٦ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2016 Hindawi Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

الإهداء	٧
في الطريق إلى ينبُع	٩
في جدة	٢٣
بين جدة ومكة	٣٥
في مكة	٤٥
بين مكة والكندرة	٦٥
في وادي فاطمة	٧٩
في بيت العويني	٨٩
خاتمة	٩٣

الإهداء

إلى التي تفرح لفرحي وتحزن لحزني والتي أسيء إليها فتعفو، وأرهقها فتحتمل، والتي لا تكون معي إلا راضية عني مباهية بي داعية إليَّ.

إلى أمي ...

إبراهيم عبد القادر المازني

في الطريق إلى ينبُع

رأيت نفسي أتساءل — وأنا أصافح ربان السفينة وأستفسر منه عن الجو وما ينتظر أن يكون، والبحر وهل يُرجى أن يكون لينًا: «ماذا يُرجى لهذه الأمة العربية التي سنشهد بعد أيام احتفالها بمبايعة ملكها؟ هل تكر على العالم بنهضة جديدة؟ أو دَعِ الكَرَّ فقد تكون مسافة ما بينها وبين العالم أطول من أن تعين عليه أو تجعل له محلًّا، وسل: هل في وسعها أن تشق طريقها إلى منزلة من منازل الحياة العزيزة؟»

ومن عجائب النفس الإنسانية أنها تتَّسع لهذا الازدواج: هذا الربان أمامي أجاذبه أطراف الحديث وأنتقل معه من جِدٍّ إلى هزل، وأعرفه بهذا وذاك من إخواني. وتتَّسع حلقة الكلام وترحُب دائرته وتكثُر شعابه، ويذهب هو يصف لي ميناءَيْ ينبع وجُدَّة، وكيف تكثر في مدخليهما الصخور، وأنا منصت مرهِف الآذان لكل حرف، ولساني يجري بالكلام مجاوبًا أو ملاحظًا أو مسائلًا، وإذا بخاطر آخر يشغل من النفس الحَيِّزَ الأكبر ويدور فيها ويأبى إلا أن أُعنَى به وألتفت إليه.

ولعل للقلب في أثناء ذلك التفاتة أخرى إلى الأهل والإخوان، وإلى ما خلَّف المرء وراءه من معاهد حياته، وأغرب من هذا أن تكون الالتفاتة عمومها كالخصوص فهي لفتة شاملة محيطة، ولكل شخص ولكل حادثة حظ نسبي من البروز، ولكل ذكرى محلها ولكل عهد مكانه، بلا بخس ولا وكس.

على أن هذا ليس موضع الإفاضة في قدرة النفس على الاشتغال بأكثر من أمر واحد والانصراف إلى كل شأن كأنها متخلية له، فلنرجع إلى ما كنا فيه.

لم أُجِبْ على سؤالي وإن كان التفكير فيه قد شغلني طول الطريق؛ لأن كل ما أعرفه عن العرب في حاضرهم مستفاد ممَّا قرأت أو سمعت، ولم أَرَ موجبًا للتعجيل بالجزم وليس بيني وبين المعاينة إلا أيام.

غير أن هذا لم يُعفِنِي من إلحاح هذا الخاطر الذي ظلت النفس تواجهني به وترفعه قبل عيني على صور شتي؛ فمرة يكون السؤال كما أوردته، وتارة يكون: «هل في الأمة العربية مادة صالحة لما تتطلبه الحياة في العصر الحاضر من الكفاح المر؟»

وطورًا يهتف الأمل: «إن هذه الأمة تغالب طبيعة بلادها الماحقة، وتصارع أهوال الصحراء، فلِمَ لا تستطيع أن تكافح المصاعب التي تحفها بها الأحوال العارضة؟»

وربما جنحت النفس إلى اليأس كلما تصورت بُعْدَ ما بين العرب وغيرهم من شعوب الأرض المتحضرة، وتعذر اللحاق بهذه الشعوب التي أغذت السير قرونًا وهم يحدون الأبل ويقتتلون كما كانوا يفعلون في الجاهلية. بل كان اليأس يخامرني كلما تخيلت الصحراء الساحقة التي يصارعونها، وكنت أقول لنفسي: «هل يتاح لأمة واحدة أن تنهض مرتين وأن يكون لها في التاريخ مدنيتان عالميتان؟ ألَا تستنفد النهضة الأولى قواها وتعتصر حيويتها ولا تبقي منها إلا ما يَبقى من ألياف «القصب» الجافة بعد مصه أو اعتصاره؟»

وهكذا إلى غير نهاية! فما لقينا من البحر ما يصرفني عن التفكير أو يعدل بخواطر النفس إلى مجرًى آخر. ولقد كنا في السفينة وكأننا في بيوتنا لا على الماء، وكانت السفينة تفرق البحر وكأنها لا تمسه، فلا موج ولا اهتزاز ولا دوار، حتى لقد اشتقت أن يطغى بنا قليلًا ليردنا إلى التهيُّب، غير أن البحر خيَّبَ أملي فيه.

وقد فرحت في أول الأمر بالفرصة التي أتاحت لي هذه الرحلة، وقلت لنفسي إن المصريين يخرجون أفواجًا إلى الأقطار الأخرى، وصار ذلك سنة مَرعِيَّة عندهم، حتى ليُخيَّل للمرء في مقدمة المصيف أن هذه الأمة المصرية قد أزمعت أن تهاجر إلى وادٍ غير واديها. وكنت في صيف كل عام أخشى أن لا يبقى في البلاد غيري، وأن لا يعمرها سواي، فلما عرضت هذه المناسبة للسفر إلى الحجاز في الشتاء قلت: حسن! دَقة بدَقة والبادي أظلم، لقد عمرت الوادي من قبل فلتعمره الأمة الآن، ولتقم عني بواجب الحراسة التي أراني كأنما كنتُ موكلًا بها، فما أحسب أحد أطاق أن يقيم كما أطقت، لكأنما كنت كلبًا حارسًا لا إنسانًا له ديباجة تَخلُق، وتستحق أن تتجدد.

وسرني على الخصوص أن السفر إلى الحجاز لا إلى الغرب؛ ذلك أن الغرب يزور مصر، ولو شئت لقلت إنه يغزوها، فلسنا نحتاج أن نزوره، أما الحجاز فأمره مختلف

جدًّا، ولَنحن خلقاء أن نجعل علمنا بالشرق العربي أعمق، وصلتنا به أوثق، وارتباطنا به أمتن.

وما أحسبني أبالغ حين أقول إن مستقبل الشرق واحد وإن تفاوتت خُطى أبنائه. ومن الجهل أن نشيح بوجوهنا عنه، ومن الخرق أن تتجاهله، ومن البلادة أن ننسى أننا مرتبطون به وإن خفيت الخيوط، ومن الغفلة أن نتوهم أن الرحيل لا يكون نافعًا إلا إلى الغرب، وأنه لا فائدة تُكتَسب من زيارة الشرق والاطلاع على أحواله.

وعرفت أسماء رفاقي فأطرقت أفكر: هذا أحمد زكي باشا أحدهم وهو شيخ العروبة أو لا أدري ماذا يسمونه أو يسمي نفسه، وهذا آخر من المجاهدين في سورية، وهذا ثالث كان له في حركة الاستقلال السوري دور هو أشبه بقصص السندباد البحري[1] فماذا عسى أن أكون بينهم؟ أين يذهب الصعلوك بين الملوك؟ هل في مقدوري حين أفخر أن أدَّعِي أني أكثر من جندي صغير؟ ثم هؤلاء زملائي وليس بينهم إلا من هو أنشط مني وأجرأ.

واستعرت من زميل لي مبراة، وملت إلى الحاجز على ظهر السفينة وأرهفت أقلامي، ثم لم أجد لي عملًا بعد ذلك فأقمت حد المبراة على حديد الحاجز ورحت كأني أقطع، فسمعت قائلًا يقول لي: «رفقًا بالسفينة يا صديقي، أو بمبراتك إذا كان أمر السفينة لا يعنيك!» فالتفتُّ فإذا إنجليزي في مثل ثياب الربان.

فقلت له: «المبراة عارية، وقد آن أن أردها.»

فابتسم وقال: «بعد أن شحذتها؟»

فسألته وأنا أشير إلى رجل في مقدمة الباخرة: «من هذا الرجل ذو الوجه الأمرد والنظرة الوحشية؟»

فقال: «هذا الكبتن … لقد كان ضابطًا في البحرية البريطانية وأبلى في الحرب الكبرى بلاء حسنًا، وقد سُرِّحَ، وهو الآن يعمل في هذه الباخرة.»

فتركته، وسرت خطوات فرأيت أمامي سلمًا صعدت عليه فألفيت أمامي قوارب النجاة فدنوتُ من أولها، وخطر لي أن أمتع نفسي بالجلوس فيه، فشرعت أرفع رجلي لأخطو إلى جوفه، وإذا بيد على كتفي تجذبني وصاحبها — أعني صاحب اليد — يقول: «إني مضطر أن أحملك على ترك هذا. وإذا كنت تريد أن تعرف شيئًا فأرجو أن تسألني …»

---

[1] هما نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلي من المجاهدين في القضية العربية.

ولم يتم كلامه بل تركني وقفل راجعًا إلى حيث لا أعلم كأنما ناداه أحد، وإن كنت لم أسمع صوتًا، فدنوت من خادم وسألته عنه من يكون؟ فقال: «هذا الكبتن … مساعد الربان.»

فقلت: «هذا أكثر مما أطيق. اسمع، إنك مصري مثلي فاصدقني. إذا أغمضت عيني وسرت في هذه الباخرة ووضعت يدي على أول رجل أصطدم به، فهل يمكن أن يتضح أنه ليس بكبتن؟»

فضحك الخادم وهو من السويس وقال: «لا أدري، ولكني أرجح أن تصطدم بالكبتن الملاحِظ؛ فإنه وراءك الآن وعلى مسافة مترين فقط.»

فانحدرت إلى غرفتي وأنا أقول لنفسي: «إن السفينة التي لها رئيسان تغرق، فكيف بواحدة عددت من «كباتنها» أربعة إلى الآن؟! اللهم لطفك!»

وفَتَرَتْ رغبتي في الطعام، وكان نبيه بك العظمة يحرضني عليه ويُلِحُّ على أن أصيب منه قليلًا، فاعتذرت بالألم الذي سبَّبَتْه لي حقنتا الكوليرا والتيفوئيد، وكتمت عنه وعن زملائي أن للسفينة مائة رئيس حتى لا أزعجهم.

ومضى اليوم الأول وأصبحنا دون أن تتصادم «إرادات» هؤلاء القباطنة أو الكباتن، فذهب عني بعض الروع وعاودني شيء من الاطمئنان. واتفق أن سألني بعض رفاقي: «بسرعة كم ميل تسير هذه السفينة؟»

فقلت: «لا أدري، ولكني أُقَدِّرُ أن سرعتها لا تتجاوز اثني عشر ميلًا في الساعة.»

فصاح بي واحد: «مهلًا! إن سرعتها خمسة أميال فقط!»

قلت: «خمسة أميال! يا للعار! لو سرنا على أقدامنا لسبقناها.»

فعاد يؤكد الأمر ويقول إنه استقى هذه الحقيقة من الكبتن، فأيقنت أنه لولا كثرة القباطنة لكانت الباخرة أسرع. وقلت لنفسي: إذا كان البطء كل ما تؤدي إليه كثرتهم فلا بأس.

واستيقظت بعد ظهر يوم على صياح عجيب، لا هو صياح ولا هو استغاثة، لأن فيه انتظامًا ولأن في الصوت تنغيمًا، فاستويت قاعدًا وأرهفت أذنيَّ فخيل إليَّ أن الألفاظ عربية ولكن اللهجة غريبة، ثم تبينت لفظين هما: «الله أكبر!» ولكن اللسان الذي يعلو بهما كان أعوج ملتويًا، فعجبت ثم تذكرت أنها إحدى سفن «البوستة الخديوية» وهي شركة إنجليزية تسير بواخرها بين السويس والسودان جيئة وذهوبًا، وتنقل الحجاج — فيما تنقل — إلى ينبع وجدة. وقد رأينا بعضهم في الباخرة على غطاء مخزن البضاعة

حيث يفرشون السجاجيد ويكدسون أمتعتهم ويحشرون أنفسهم بينها تحت سماء الله، وهذا هو مكان الدرجة الثالثة.

وقد قلت لنفسي لما سمعت هذا الصوت: إن الإنجليز قوم يتوخون أن يتكيفوا على مقتضى الظروف ووفق ما تتطلبه الأحوال، وهذا الذي سمعته أذان أي دعوة إلى الصلاة، وليس مما يتنافى مع الشذوذ الإنجليزي أن تكون الشركة قد عينت للأذان في الباخرة واحدًا من هؤلاء «الكباتن» الذين لا أدري ماذا يصنعون جميعًا في سفينة صغيرة كهذه.

وسرني وأضحكني أن المؤذن «كبتن» إنجليزي، وقلت: أشرك إخواني فيما يفيده العلم بذلك من المتعة. فعدوت إلى سطح الباخرة حيث كنَّا نجتمع فالتقيت بواحد أقبلت عليه أفضي إليه بخبر هذه البدعة السكسونية. فضحك، ولكن مني، ثم أشفق أن يعرف زملائي زلتي فيركبني الثقلاء منهم بالسخرية، وأومأ فإذا تحت أنفي جماعة من العرب يصلون، وإذا صوت الإمام كصوت المؤذن فيه ذلك الالتواء الذي خدعني.

وكانت سلوتنا الحديث والنظر إلى البحر و«الطاولة»، وكان بطلها — أعني الطاولة — أحمد زكي باشا، غلبنا جميعًا وأقر لكل منا بأنه خير لاعب، وفي زكي باشا نشاط وجَلَد وقدرة على الاحتمال وحلم وظرف وعطف ودعابة، راعتني منه، وكان لنا كالوالد يحنو علينا ويسأل عنا ويتعهدنا ولا يُؤْثِر نفسه دوننا بملهاة، ولا يستبد برأي أو يصر على اقتراح جدًّا كان أو هزلًا، بل الرأي عنده ما رأت الجماعة، يتقبَّله مرتاحًا، وينزل على حكمه راضيًا، ولو كان مقتنعًا بصواب ما يذهب إليه.

وكان أعذب الجميع حديثًا وأمتعهم مجلسًا نبيه بك العظمة والأستاذ خير الدين الزركلي، فتعلقت بهما وأثقلت عليهما بمَحضري، ولم أدَع لهما راحة، ولم يبخلا عليَّ بشيء مما استخبرتهما عنه، فكانا يهضبان لي بما رأيا وجرَّبَا وكابدَا في رقع شتي من الأرض في الحرب والسلم، ولم يكن لهما مني مناص أو مهرب سوى البحر، وهما لا يزالان أوسَعَ آمالًا في الحياة وأطلب لرغائبهما منها، وأقوى رجاء في الله وفي بلوغ الغاية القومية من مساعيهما من أن يفكرا في الانتحار فرارًا مني؛ لذلك توثقت بيننا العرى كارهين أو راضين، فلما بلغنا ينبع صرنا وكأن صداقتنا أقدم عهدًا من الجبال.

ولست أنسى منظر الزملاء وقد اعترتهم نوبة «الكتابة»، وتصور سبعة أو ثمانية قد جلسوا على الكراسي المسمَّرَة، وأقبلوا على الورق والبطاقات يسوِّدونها لَمَّا علموا أنهم

مصبحون في ينبع وأنهم قد يستطيعون أن يبعثوا برسائلهم من هناك[٢] إلى أهلهم وإخوانهم وصحفهم، ويكفي أن يجلس واحد للكتابة ليحتذي الباقون مثاله ويعديهم بالرغبة في ذلك؛ فليست الثؤباء وحدها هي التي تُعدي، ولا القرود دون خلق الله هي التي تنزع إلى التقليد.

ولو أن القارئ رآنا في تلك الساعة ونحن مُكِبُّون على الورق ذاهلون عن كل ما في الدنيا؛ لكان أول ما يخطر له أننا قد آلينا أن نصدر في الباخرة الصحف التي نمثِّلها، أو أن هناك امتحانًا معقودًا لنا.

وعرض علينا أحد رجال السفينة بطاقات عليها رسمها فتخطَّفناها حتى نفدت كما نفد ورق الخطابات! وتصورْ سبعةً أو ثمانيةً يستنفدون كل ما في الباخرة من ورق وخطابات، أليس هذا دليلًا على الهمة والنشاط والخصب؟ وأحسبني مسئولًا عن العدد الأكبر من هذه الأوراق التي استهلكت، فقد نازعتني نفسي أن أكون متفرجًا لا كاتبًا، وأن أمتع عينيَّ بمناظر الوجوه المُكِبَّة على الورق وما يظهر عليها من دلائل الإجهاد — إجهاد القرائح الخصيبة — فلجأت إلى الحيلة، وقلت أكتب رسائلي بالجملة، فجئت بورق الكربون ووضعته بين الخطابات، وكتبت رسالة واحدة وجيزة ثم جلست أتفرج!

وكان أحدنا يكتب يوميات عن هذه الرحلة، وكان يختصني بهذا السر، ولا أدري متي كان يكتب يومياته، فما رأيته قط خَلَا بنفسه أو بكَّر إلى مخدعه، وقال لي مرة: «لقد صارت مذكراتي ضخمة. كتبت اليوم سِتَّ صفحات وكتبت البارحة سبعًا، وأول من أمس تسعًا، فما قولك؟»

فقلت مستغربًا: «كل هذا؟ وأي شيء وجدته يستحق التسجيل؟»

قال: «كل شيء، خطوط الطول والعرض، ووجوه القمر، وأدوار الطاولة التي لعبتها وفي أيها كنت الغالب أو المغلوب، والأسماك التي رأيناها في البحر، بعضها يطير على سطح الماء، وبعضها يهاجم السفينة طلبًا للقوت، والبواخر التي مرت بنا في الليل وحيَّيناها والأمم التي هي تابعة لها. وعلى ذكر ذلك أسألك: هل تعرف لماذا لا نرى باخرة في النهار؟ ألا تعرف؟ وكم كذبة كذبها «فلان» اليوم؟ وحالة البحر والرياح وإن كانت لا تتغير ولا تكاد تختلف يومًا عن يوم، وهذا ممل، أليس كذلك؟ وكم صورة أخذها رياض؟ وكم صورة أخذتها المدموازيل عايدة؟ كل شيء، كل شيء، حتى لقد أفردت «لأكلة الصيادية» عدة

[٢] اتضح فيما بعدُ أن إبقاء الرسائل في جيوبنا أسرع من إرسالها من ينبع أو جدة.

صفحات، إنها تستحق ذلك؛ فقد كانت أكلة غير منتَظرة وكانت لذيذة، والفول المدمس. أوه! له وحده صفحتان. ألا تراه جديرًا بذلك؟ مدهش. مدهش أن نأكل فولًا مدمسًا على الباخرة تالودي الإنجليزية!»

فسألته بعد أن انقطع نفَسه: «وماذا تنوي أن تصنع بهذه المذكرات بعد أوبتك؟»

قال: «سأطبعها وأنشرها. كم تظن أنها تساوي؟ أعني كم تتوقع أن أربح منها؟»

قلت: «تساوي ... تساوي إذا اعتبرنا عدد الصفحات ووزنها قياسًا على ما كَتَبْتَ إلى الآن مائة جنيه أو مائتين.»

فصافحني مسرورًا وهو يقول: «لقد قدرت لربحي مثل هذا ... تمامًا.»

فقلت مستدركًا: «إنما أعني ثمن الورق الذي تملؤه ... أما الربح فلا أدري. ربما كان أكثر وقد يكون أقل.»

فلم يضعُف أمله وقال: «تمام. تمام. تقديرك على كل حال مضبوط.» ومضى عني.

ولما كنا عائدين من مكة سألته: «إلى أين وصلت في مذكراتك؟»

فطال وجهه وقال: «يا أخي، الحق أقول لك إن كتابة المذكرات عمل مضنٍ. ثم إني لا أجد الوقت. نحن في حركة دائمة فمتى أكتب؟ على أني سجلت كل شيء في رأسي؛ فإن ذاكرتي قوية وأنا أذكر حتى الأحاديث بألفاظها ولو كان عمرها أعوامًا. فلا خوف، انتظر حتى نرجع ونطمئن.»

وفي الساعة السادسة من صباح السبت (٤ يناير) أيقظني أحد الزملاء وأبلغني أن الشاطئ قد ظهر، فقلت له وأنا أتميز غيظًا إني لا أحفل بالشواطئ — ولو كانت شواطئ الجنة — في الساعة السادسة صباحًا، فذهب عني وأغمضت عيني، ولكن غيره جاء ثم غيره، فأيقنت أن الحماسة التي أوقدها ظهور الشاطئ لن تدع لي جفنًا يغفى، فقمت متثائبًا متثاقلًا ووقفت متكئًا على الحاجز فلم أرَ شيئًا فالتفتُّ إلى أول من أيقظني وقلت بلهجة المعاتب: «أين هذا الشاطئ الذي بدا لك يا سيدي؟»

فقال: «هذا. ألا تراه؟ غريب! إني أستطيع أن أشير إلى المكان الذي سترسو أمامه الباخرة. لا بد أن يكون هذا.»

ومرت الساعات ونحن نروح ونجيء وهو في مكانه لا يتحول عنه ولا تتعب رجلاه، وبدت ينبع ملفوفة في الضباب، حتى جبال رضوى التي تظهر من ورائها خلناها ضبابًا من اختلاط السحب برءوسها، فاختلفنا وتراهَنَّا، وشرعت السفينة تدور لتدخل المرفأ،

فقربنا جدًّا من الساحل وشاء الحظ الساخر أن يكون المكان الذي أشار إليه صاحبنا وأصر على أن الباخرة سترسو عنده، هو المقبرة.

ورست الباخرة، في المرفأ لا أمام المقبرة، وأقبل الصبيان يسبحون إليها كالسمك وينادوننا أن نلقي إليهم بالقروش ليلتقطوها، فرُحْنا نرمي إليهم بالقرش بعد القرش وهم يتزاحمون عليه ويغوصون وراءه ويتلقَّونه بأكُفِّهم وهو يهبط في جوف الماء قبل أن يبلغ القاع، فمن فاز به دَسَّه في شدقه، حتى انتفخت أشداقهم وصارت وجوهم مشوَّهة بَشِعَة المنظر.

وركبنا زورقًا إلى المدينة، وهي صغيرة فقيرة، وبها مساجد كثيرة أشهرها مساجد ابن عطاء والخضر والسنوسي، وأهلها وكلاء للتُّجَّار أو عمال لهم، وليس فيها زرع ولا ضرع، وبها آلة لتصفية ماء البحر للشرب يسمونها «الكندنسة» وهي لفظة محرَّفة عن الكوندنسر، فاستقبلنا قائم المقام الشيخ مصطفى الخطيب، وهو من أهلها وكان عاملًا عليها في عهد الحسين لم تنحه الحكومة السعودية ترفعًا منها عن حماقات العزل والتأمير، وزرنا دار الحكومة وهي أبسط ما تكون: بضعة مكاتب في الدور الأرضي، وفي الدور الذي فوقه غرفتان إحداهما للقائمقام وفيها مكتب وسجادة ولشبابيكها ستائر، وفي الأخرى مكتبان صغيران.

وبعد أن شربنا القهوة النجدية ثم «الشاهي» كما يسمون «الشاي» استأذنَّا وانحدرنا إلى المدينة نطوف فيها إلى أن يخرج الأمير والناس من صلاة الظهر، فمررنا بالسوق وهي حارة ضيقة مسقَّفة على جانبيها الدكاكين فيها صنوف شتَّى من العطارة والبقول والمنسوجات والخبز والأسماك والجراد، وقد أكل منه زكي باشا، ولم يكن في الدكاكين أحد لأنه كان وقت الصلاة، وكان الطريق غاصًّا بالأطفال يمشون وراءنا ويحفُّون بنا في خرق ممزقة ومراقع لا تكاد تستر شيئًا. فتساءلت: ماذا يحمي هذه المتاجر أن يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء؟ فقيل لي إنه لا خوف منهم لأنه ما من أحد يجرؤ أن يسرق شيئًا.

وبلغنا آخر السوق حيث المسجد وكان الناس قد فرغوا من الصلاة فوقف رجل أمام كوم من الكلأ وقطع من الحصير وأعواد من الخشب يبيعها بالمزاد، وكل ما أمامه لا يساوي ريالًا.

ولم أرَ امرأة ولا بنتًا، إلا واحدة في نحو السابعة من عمرها ملفوفة في ملاءة قذرة وفي إحدى أذنيها قرط من العقيق، وقيل لي إن النساء لا يخرجن من البيوت، والأهالي خليط

من كل جنس وملة، وسِحَنهم معرض للأمم الشرقية، فمن زنجي إلى جاوي، ومن عربي إلى مصري، ومن هندي إلى فارسي، ومن سوري إلى صومالي … وهكذا.

وزرنا الأمير — أي الحاكم — عبد العزيز بن معمر، وهو شاب نجدي جميل الطلعة وسيم المُحَيَّا مقدود قد السيف، والدار على الطراز الشرقي القديم الذي كان مألوفًا في مصر منذ أكثر من خمسين عامًا ولا تزال بعض آثاره باقية في الأحياء الوطنية التي لم تمتد إليها يد العمران الحديث مثل الكحكيين وسوق السلاح، وغرفة الاستقبال في داره مفروشة ببساط أحمر، والكراسي (الخيزران) صفَّان على الجانبين، وفي الصدر مصطبة مفروشة بالسجاد العجمي وعليها الوسائد لجلوسه، وكان الأمير يلبس جلبابًا من السكروتة فوقه معطف من الكشمير عليه عباءة حمراء، وعلى رأسه العقال الأسود والمسدس مشدود إلى وسطه، والسيف المُذَهَّب المقبض يتدلى من حمائله.

ومن عاداتهم أن يجلس حرسه الخاص على جانبي الباب من الداخل في نفس الغرفة، ويجلس الباقون من الحراس خارجها وهم جميعًا مسلَّحون، والسيوف والبنادق والمسدسات وأحزمة الخراطيش معلقة على الجدران؛ فكأن الغرفة مخزن سلاح لا حجرة استقبال.

وفي ينبع بلدية، ومكتب تلغراف لاسلكي، ومدرسة أولية ابتدائية يديرها مصري طبقًا لمناهج التعليم المصرية، وفيها نحو مائة وتسعين تلميذًا متفاوتي الأسنان والأطوال، متبايني الثياب مختلفي الوجوه. ومصلحة للصحة … إلخ.

وقد شعرنا من أول لحظة أننا في بلاد مستقلة؛ فلا أجنبي هناك ولا نفوذ ولا سلطان إلا الأبناء وكل موظف حجازي، حتى اللاسلكي عماله ومديره حجازيون، وقد أبى زكي باشا إلا أن يرى هؤلاء العمال وهم يبعثون بتحيتنا إلى سمو الأمير فيصل في مكة، كأنما لم يكن يصدق أن لابسي العباءة والعقال يستطيعون أن يُحسِنوا ما يحسنه الأوروبي من الأعمال الآلية على الأقل.

وودعنا الأمير بعد أن أُخِذَتْ صورتنا معه وعدنا إلى الباخرة، وهناك جاءنا وفد من ينبع ليرد لنا الزيارة ويشكرنا، وبعث إلينا الأمير بعدد من الخراف هدية منه عوضًا عن الغداء الذي لم نستطع أن نجيب دعوته إليه؛ إذ كنا قد تغدينا في الباخرة.

فحِرْنا ماذا نصنع بهذه الخراف! وعَقَدْنَا مؤتمرًا للتشاور. فقال واحد: نردها شاكرين. ولكن هذا كان مستحيلًا، واقترح ثانٍ أن نردها ولكن لتذبح وتوزع على فقراء المدينة، ولكن هذا كان ردًّا على كل حال، وفيه — فضلًا عن ذلك — خشونة التعريض

بالمدينة وأهلها وحكومتها، وقال ثالث إن في الباخرة حجاجًا فقراء فلنذبح الخراف لهم ولنوزع لحمها عليهم. ففعلنا.

وهكذا كان كل اقتراح مولَّدًا من الذي سبقه، وأنتج الخطأ في آخر الأمر الصواب. ولا عجب؛ فما من خاطر أو إحساس إلا وهو وليد خواطر أخرى وإحساسات شتى، وليس في الدنيا إلا آدم واحد بلا أبٍ أو أمٍّ.

وفي ينبع وجدت «صندوق الدنيا»، وكنت أحسبني حَطَطْتُهُ عن عاتقي في مصر، وكان ظني أنه يسعني بعد أن سافرت أن أمشي خفيفًا لا يثقل كاهلي هذا الحمل ولا يحني ظهري ثقله، فإذا بي قد صرت كالأحدب لا يدخل في مقدوره أن يستوي قائمًا كغيره من بني آدم الذين كُتِبَتْ لهم السلامة من اعوجاج الخلق وحدب الظهر، وقال لي واحد: «لقد قرأت صندوقك.»

فغاظني ذلك وإن كان قد سرني، وقلت: «سأضعك فيه إن شاء الله بعد عودتي.» فأقبل عليَّ يرجو مني ألَّا أفعل، فقلت: «على شرط.»

قال: «ما هو؟»

قلت: «أن تعفيني أنت وإخوانك من ذكره وإلا حشرتكم فيه جميعًا.»

قال وهو يضحك: «ولكنه واللهِ ممتع.»

قلت: «وسيكون الجزء الثاني أمتع بوجودكم.» فامتُقِع وجهه، وأحسبه خاف أن أرسم له صورة تمسخه وتجعله أضحوكة، فطمأنته وأكدت له أني أمزح. فسألني وقد سكنت نفسه: «ولكن لماذا تكره أن يُذكَر لك؟»

فقلت له: «إن الذي يضحكك منه هو الذي أبكاني، وأحسبني معذورًا إذا كنت أزهد في كل ما يذكرني بسخر ما جرت به المقادير. فإذا كنت تفهم هذا فبها ولله الحمد؛ وإلا فأمسك ودعنا نستمع إلى الباشا وهو يتحدث عن العروبة ويذكر الجواد الذي أهداه إليه جلالة الملك عبد العزيز فلم يدرِ كيف يركبه أو يطعمه أو يلجمه أو يسرجه. سَلْهُ ألم يخطر له أن يطعمه كنافة في رمضان؟ سَلْهُ أكان يأكل — أعني الجواد — من المذود أم كان الباشا يبسط له السماط ويمد له الخوان؟»

وفي ينبع عشرة آلاف نسمة وأقل من مائة جندي، والحكومة كأبسط ما يكون، ولا حاجز هناك بين الأمير وأحقر الأهالي، وسلطان الحكومة ليس مستمدًّا من الخوف الذي تبعثه

القوة، بل من الاحترام والحب والتعاون، وآية ذلك أن الناس صريحون مع حكامهم، وأن الحكام لا يبدو عليهم تكلُّف، ولا تكون الصراحة مع الخوف والتقية، ولا الخوف مع البِشْرِ الذي ينضح به الوجه ولا يخفى فيه صدق السريرة، ولا هذه البساطة المبتسمة مع القسوة والاستبداد.

ولم أسمع في المرتين اللتين زرت فيهما ينبع أمرًا يُلقى، أو كلمة مَلَقٍ ودِهَانٍ تُقال، ولقد كان أمير ينبع يُسِرُّ إلى الرجل من حرسه أن يطلب القهوة أو «الشاهي» أو يدعو فلانًا أو علانًا أو يفسح الطريق، وكنت أراه وهو يميل عليه كأنه يهمس في أذنه نكتة أو كلمة سارة.

ولم تأخذ عيني منظرَ قسوة واحدًا، وكثيرًا ما كانوا يفسحون لنا الطريق أو يصدون الناس ليوسعوا أمامنا — في ينبع وفي جدة وفي الكندرة وفي مكة وفي وادي فاطمة — وكان الذين يتولون ذلك الجند، ولكن بإشارة يَدٍ من غير أن يدفعوا في صدور الناس أو يرفعوا في وجوههم عصا أو يتجهموا لهم وهم يصنعون ذلك، وقد عدت من ينبع إلى الباخرة وأنا أحس أني بدأت أفهم، وقد زدت فهمًا لمَّا زرت جدة ومكة، ذلك أن الرعية راضية وأن الحاكم والمحكوم متعاونان.

وقد اقتنعت — وأنا لا أزال في الباخرة قبل أن أصل إلى جدة أو أضع رجلي على رصيف مينائها — بأن المرأة النجدية تعرف السفور ولا تعرف الحجاب، وكان اقتناعي بالمشاهدة والمعاينة وليس بالسماع، ورأيت من الحزم أن أكتم عن زملائي ورفقائي في هذه الرحلة هذا السر الذي اهتديت إليه لأنفرد بالعلم به وأستأثر بفضل اكتشافه والوصول إليه، وقلت لنفسي: إن الصحافة سَبْقٌ، ولن تكون لي مَزِيَّةٌ على إخواني إذا عرفوا كُلَّ ما أعرف، وما لي أنا بهم؟ أليست لهم عيون مثل ما لي؟

ونزلنا في ينبع وجُبْنَا طرقاتِها ومَرَرْنَا بحوانيتها ورأينا ناسها، وكنت أسمع زملائي يتحدثون عن المرأة والحجاب المضروب عليها، ويردِّدون ما سمعوا من أنها لا تخرج ولا تظهر ولا يراها غير زوجها وذوي قرابتها الأدنين، فابتسم ساخرًا وأهز رأسي هازئًا متهكمًا وأرد نفسي بجهد عن أن أصيح بهم: «يا عميان! إن نصف من ترون في الطرقات نساء تحسبوهن رجالًا!»

وقد رأي زملائي المساكين جدة ومكة وما بينهما وعادوا وهم على ذلك يعتقدون أن النساء النجديات محجبات. مساكين! لكم وَدِدْتُ أن أشق لهم بالمبراة جفونهم المطبَقة ليبصروا! وكم نازعتني النفس أن أخطبهم على ظهر السفينة ونحن راجعون، وأن ألقي

عليهم محاضرة في النظر وكيف ينتفع صاحبه به! ولكن الأثرة غلبتني، وحب الذات كان أقوى فتركتهم يرجعون كما ذهبوا بعيون مفتوحة كمغمضة، وكان احتمالي هذا الكتمان وقدرتي على الإمساك على سر ما علمت، جهدًا شاقًّا لم أكن لأقوى عليه لولا الإرادة المصممة.

والآن وقد امتحنت إرادتي وأيقنت أني نجحت، أراني أستحق أن أرفِّه عن نفسي بالإفضاء وأن أرخي أعصابي المشدودة بالبوح بما أحسنت كتمانه.

لما صرنا أمام رابغ أحرمت الباخرة؛ أعني ركابها الذين ينوون أن يقصدوا إلى مكة مباشرة، فظهر بيننا فجأة رجل نجدي قيل لي إنه أمير في قومه وحوله حاشية كبيرة من أتباعه وعبيده، وكلهم مُحْرِمٌ، والإحرام لا يمنع أن يلبس المرء سلاحه، فكانوا يحملون فوق ما أحرموا به المسدسات والخناجر وأحزمة الخراطيش، واتصلت بيننا وبين هذا الأمير الأسباب، فاختلطنا وصار عبيده وخَدَمه يسقوننا من قهوتهم النجدية الحادة، وهم يقدمونها في فنجانة كبيرة مفرطحة يصبون فيها نقطة أو رشفة، تحتاج لكي تشربها أو تلحسها أو تنقلها إلى فمك أن ترفع وجهك إلى السماء وتقلب الفنجانة على فمك لينحدر ما فيها إلى لسانك، حتى إذا فرغت دون أن تقع على الأرض رددت الفنجانة فصب لك فيها رشفة أخرى إذا راقتك الحركة التي يكلفك إياها شربها؛ وإلا هززت الفنجانة علامة الاكتفاء، وقد سمعت — وصدَّقتُ — أن القهوة النجدية تقوي عظام العنق، وقد سمعت أيضًا — ولكني لم أَرَ هذا — أنهم يعقدون مباريات لشرب القهوة وهم وقوف.

وكان معنا «رياض أفندي شحاته» المصور المشهور، فدعاهم إلى الوقوف معنا ليصورنا ففعلوا، وكنت غائبًا فنادَوْني فأسرعت إليهم ووقفت حيثُ وجدتُ لي مكانًا، وإذا برياض أفندي يدعوني أن أتزحزح عن مكاني ويشير إلى جاري، فالتفتُّ إلى يميني فلم يسعني إلا أن أتراجع بسرعة وإلا أن أقول: «بردون مدام! أعني معذرة يا سيدتي! لقد زاحمتك وأنا غافل عن وجودك فلا تؤاخذيني! تفضلي.»

وتنحيت بعد هذه الخطبة التي لم تَرُقْ مَن سمعها من إخواني فصاح بي واحد: «ماذا تقول؟! قف يا أخي هنا. نعم هنا واسكت.»

فهززت رأسي آسفًا مستغربًا قلة ذوق هذا الزميل الذي ينقم مني تأدُّبي مع سيدة. فسمعت رياض أفندي يصيح بي: «ما تهزش رأسك يا أستاذ مازني.»

فحار الأستاذ المازني وبين رياض أفندي وهذا الزميل الموبخ وقال — أي الأستاذ المازني — لجاره إلى يساره: «أنا كنت أعتذر فوبخني زميلي لا أدري لماذا؟ هل كان يليق أن أكتم الاعتذار لها بعد أن فطنت إلى غلطتي؟»

ففتح جاري عينيه جدًّا وقال بلهجة المستغرب: «ماذا تقول؟ من تعني؟»

وهنا صاح رياض أفندي: «يا أستاذ مازني اعمل معروف اقف ساكت خلينا نخلص.»

فقلت: «أما إن هذا لغريب! وهل أنا الذي أعطلك؟ الحق أقول إني صرت لا أفهم.» وأيقنت أن رياض أفندي غائر مني.

وقال واحد كان ورائي: «لا بأس. أجِّل الفهم إلى ما بعد التصوير.»

فنظرت إلى الأمير فرأيته يبتسم، وثنيت عيني إلى جارتي الرشيقة وشعرها الوحف المضفَّر الذي يفترق فوق جبينها الوضَّاء ويلمع في ضوء الشمس كأنه مدهون «بالبرينتين» وإلى حوَر عينيها الواسعتين اللتين يزينهما الكحل، وإلى ديباجة وجهها الضافية وماء الشباب الذي يترقرق في وجنتيها، والابتسامة الخفيفة المغرية التي تفترُّ عنها شفتاها الرقيقتان.

وأحسب عيني لم تتحول عنها، وأظنني ظهرت في الصورة ناظرًا إليها لا إلى رياض أفندي، فما كدت ألتفت إليه حتى كان قد فرغ مما يريد فقلت: لا بأس. وأقبلت على صاحبتي أكرر لها الاعتذار وهي لا تزيد عن الابتسام ولا تفتح فمها قط، حتى كدت أجن شوقًا إلى رؤية أسنانها التي لم أشك في أنها من مفاتنها الكبرى.

وأشرت إلى فمي وقلت أستفزها إلى الكلام: «أليس لك لسان؟ أأنت خرساء؟ مسكينة! يا لسخر الأقدار!»

فهزت رأسها وقالت شيئًا لم أفهمه. فأعدت ما قلت ببطء شديد ووضوح تام، فضحكت وهزت رأسها ثانية، وتكلمت، ولكني لم أفهم، فخطر لي أنها غير عربية، وأنها لعلها فارسية أو أفغانية وحرت بأي لسان أخاطبها، ولحق بي في هذه اللحظة زميل فجذبني وهو يقول: «ما هذا يا أخي؟ تعطلنا نصف ساعة حتى تحضر ونحن واقفون تحت الشمس المحرقة، وبعد أن تحضر يحلو لك الكلام والإيماء. هذا شيء بارد والله!»

فقلت: «ليس هذا ذنبي فقد كنت أؤدي واجب الاعتذار ...»

فقاطعني قائلا: «اعتذار إيه يا أخي؟ لا لا ... هذا لا يليق! لقد شوتنا الشمس. ولن ننتظرك مرة أخرى.»

فتركته وملت إلى غيره وهمست في أذنه: «ألا ترى هذه السيدة؟ ألم يَرُعْكَ جمالها؟»

فقال: «سيدة؟ أي سيدة؟»

قلت: «أي سيدة؟ هذه يا أعمي!» وأشرت إليها.

فانفجر يقهقه وأنا أنظر إليه كالأبله، ولما رأيت أن ليس لهذا الضحك آخر مضيت عنه إلى غرفتي فلحق بي فيها وهو يقول: «سيدة إيه يا مولانا! هذا رجل.»

فانتفضت واقفًا وصحت به مغضَبًا: «رجل؟ تقول إنها رجل؟ أأنا أم أنت الأعمى؟»

فعاد إلى القهقهة، وقعدت قلت له: «لقد كلمتُها ووجهت إليها الخطاب بضمير المؤنث فلم تعترض فكيف تزعمها رجلًا؟»

قال: «المسألة بسيطة. لم يفهم كلامك لأنه بدوي قح، وأراهن أنك لم تفهم منه كلمة.»

قلت: «صحيح. لقد حسبتها أفغانية.»

فابتسم وهو يقول: «ليتك ترى هذا الذي حسبتَه امرأة حين يمتطي صهوة الجواد ويُركِضه إلى القتال ويرسل شعره المرجَّل وينفشه! إذن لرأيت أمامك وحشًا مرعبًا يميت عدوه بنظرة قبل أن يدفن في صدره حربته.»

قلت: «والكحل؟»

قال: «هذا سُنَّة.»

فلوحت بيدي ومضيت عنه.

ظاهرة عجيبة جدًّا هذه، النجدي المشهور بوعورة الخُلُق في القتال، يكون في السلم كما رأيتُه في الحجاز، على حظ عظيم من رقة الحاشية والدماثة واللين والطراوة حتى لَيستحيل عليك أن تصدق أن هذا الرجل الذي يكاد يسيل من اللين، يُحْسِنُ أن يركب جوادًا أو يضرب بسيف أو يقوى على حمل رمح؟ وقد رأيناه يفعل ذلك كله فكأنما ركب الجواد ألف عفريت، ولا أكتم أنَّا خفناه!

في جدة

بحر بليد، هذا هو البحر الأحمر، بليد كالرجل الذي تعابثه اليوم فيضحك غدًا. والبليد صحبته متعبة، ورفقته مشقة؛ فإن حسن الفكاهة ولذتها — كحسن الكراهة — في تبادلها، لا أن ينفرد بها جانب أو ينوء بثقلها واحد.

وقد ظللنا خمسة أيام نسبح كالسلحفاة على ظهر البحر، وكانت السفن تمرق بجانبنا كالسهم، أو كالأرانب ما دمنا نذكر السلاحف، ونحن نتبطَّأ ونتلكَّأ، وأحسبنا كُنَّا أيضًا نتراجع، ونداعبه ونمازحه وندغدغه في كل موضع، ونناجيه ونناشده أن يتنبَّه، ونسأله أن يتمطى ويشد أوصاله ويتحرك، ولكن هيهات! لم يشعر بنا البحر أو لم يحفلنا، وأَبَتْ له البلادة أن ينتبه لوجودنا إلا بعد أن بارحنا ينبع! بعد ثلاثة أيام شعر بوجودنا فتثاءب! فانكفأ بعضنا فوق بعض، وصارت الرءوس في مكان الأرجل، وأطلت المَعِدَات من الحلوق وذهبت الكراسي تقعد علينا لا نحن عليها، وانقلب أظهر ما فينا وأبرزُ أعضائنا، أقدامنا في الهواء، فانتقمتْ بذلك من جور الرءوس عليها وطول اغتصابها للمراكز الملحوظة.

ولم أرَ أنا شيئًا من هذا ولكنهم حدَّثوني بما صنع البحر بهم، فقد كنت نائمًا، وكان لي أيضًا غطيط عالٍ يُخفِت صوت البحر على ما زعموا، فجاءني زميل يقول: «البحر هائج اليوم!»

فانتفضت قائمًا وقد فرحت وسرني أن البحر أولانا التفاتًا، وجعلت أروح وأجيء بقدر ما أستطيع في هذا الجحر الضيق الذي يسمونه حجرة النوم، وأرفع صوتي بقول ذلك البدوي الساذج:

والبحر صعب المراس جدًّا لا جعلت حاجتي إليه!

ألـيس مـاءً ونـحـن طـيـن؟ فـمـا عـسـى صـبـرنـا عـلـيـه؟

– «ولكن متى يا صاحبي؟ فإني ما زلت فيما أشعر على اليابسة؟»

قال: «ألم تشعر به؟»

قلت: «ربما كنت قد حلمت، بل أنا على التحقيق أحلم بالبحر هائجًا طاغيًا عنيفًا، ولكن البلاء والداء العياء يا أخي أني أنسى في الصباح ما رأيت في أحلامي.»

فقال: «أوه. هذا كلام فارغ! لقد كانت الباخرة في الليل تلعب هكذا (وأخرج قلمًا من جيبه وأمسك به من وسطه وجعل يرفع طرفيه على التعاقب) فكيف لم تشعر بذلك؟ إن هذا غير ممكن!»

قلت: «عفوًا. لقد فاتتني نصف عمري على التحقيق، وأخشى أن يضيع النصف الباقي ونحن عائدون، ولكني كنت نائمًا هكذا متعارضًا على طول السفينة. فبينما كانت أقدامكم أنتم ترتفع في الهواء ورءوسكم تهبط إلى حيث تستحق، كنت أنا لا أشعر بأكثر من حركة التنفس، أو بتقلُّب بسيط. آه! لقد تذكرت الآن أني كنت أحلم بأني أسبح في الماء وأخبط فيه بذراعي. صحيح. صحيح!»

فلم يُطِقْ صبرًا ومضى عني. فلبست ثيابي بسرعة وعدوتُ وراءه وقد تنبهتْ في نفسي كل غرائز السوء، فلما صرت على ظهر السفينة — أو ما يسمونه ظهرها وإن كان في حبة قلبها — خطر لي أني لم أَرَ أبدع من هذا الجو من قبلُ، وأنه لا عهد لي بمثل هذا التألُّق في الشمس والجمال في البحر. وأي شيء في الطبيعة أفتن من منظر الجمال الوسنان! ونازعتني النفس أن أعرب عن إعجابي بكل هذا الحسن في السماء والأرض — أعني البحر — فرفعت صوتي أريد أن أغني، ولكني لم أدرِ ما أقول فأقصرت.

وكنت أنظر حولي فأرى رفاقي متشبثين بحديد الحواجز، فدنوت من أحدهم وقلت: «سبحان ربي القادر! كيف باللهِ رُدِدْتَ طفلًا لا تقوى على المشي وحدك؟»

قال: «ألا ترى؟»

قلت: «ماذا؟»

قال: «ماذا؟! ألا ترى مقدمة السفينة كأنها سهم مُسَدَّدٌ إلى الشمس في كبد السماء!»

قلت: «معذرة يا صاحبي. لست أرى إلا ذَنَبها يحاول أن يُغاطِس الأسماك ليصطادها لطعامنا، ليس هذا من البحر ولكنه من الربان. من أين يطعمنا إذا لم يفعل ذلك؟»

وهممت بأن أقول كلامًا آخر أثبت به نظريتي، ولكن زميلًا غيره ألقى بنفسه بين ذراعيَّ، فأكبرت هذه العاطفة منه وتمثلت في سري بقول الشاعر:

أشوقًا ولما يمض لي غير ليلة؟ فكيف إذا خب المطي بنا عشرَا؟

ثم التفتُّ إليه وأنا أرفعه عن صدري الذي سكن إليه وقلت: «أسعد الله صباحك! جو بديع.»

فوضع كفه على معدته وهو يقول: «آه يا بطني!» وذهب يتخطر.

واشتاقوا جميعًا إلى معانقتي وأنا واقف أمام الباب أتلقاهم بين ذراعيَّ مسرورًا وأهش لهم وأقول للواحد بعد الآخر: «هدئ روعك! إني مقدر عواطفك نحوي، ولكن لا داعي إلى العجلة فإن الوقت أمامك طويل يسمح حتى بأن تنظم قصيدة.»

فلا يزيد على أن يضع كفه على بطنه ويقول: «آه يا بطني!»

فخطر لي أن بهم عضةَ جوع، فلما تلقيت آخرهم — وكنت قد فطنت إلى هذه الحقيقة — قلت له: «نهارك سعيد. لقد كنت تريد أن تقول ...»

ولكنه قاطعني وسبقني وقال وراحته على معدته: «آه يا بطني!»

فعرفت أني مصيب في إحالة مظاهر شوقهم إلى شخصي الضعيف على الجوع. على الرغم من تأكيد أحد الزملاء أن البحر هائج وأن موجه «دفين».

ولم نَخِفَّ لرؤية جدة لما شارفناها؛ ذلك أن الساعة كانت الحادية عشرة صباحًا، والخادم كان يُعِدُّ المائدة للغداء قبل موعده، فقلنا: هذه بشرى. وجلسنا إليها، وحضر الطعام فلم نُبالِ جدة كيف تبدو، ولم نكترث لمرفئها أين رست السفينة منه، فقد أقبلنا على الصِّحَاف «نأكل ما لا يحسب الحاسب» كأنما خِفنا ألَّا نقع في جدة على طعام، فرحنا ندَّخر ما يكفي أيامًا، وجعلنا نلتهم الشبابيط (السمك) والفراريج (الدجاج) بلا مضغ مخافة أن يدركنا وفد مستقبل فيشاركنا، وصح فينا قول ابن الرومي:

فكَّاه كالعصرين من دهره كلاهما في شأنه دائب
ذي معدة ثعلبها لاحس وتارة أرنبها ضاغب

تعلوه حمى شره نافض لكن حمى هضمه صالب

وصدق فينا المثل العامي: «وقت البطون تضيع العقول.» فلما صعد الطبيب إلى الباخرة ودخل علينا أدار عينه فينا فلم يَرَ أحدًا رفع رأسه فقال: «ما شاء الله! ما شاء الله! الحمد لله على السلامة!»

وكانت الأفواه في شغل بما فيها فرددنا بأيدينا واستأنفنا العمل فقال: «صحتكم طيبة والحمد لله؟»

– «مش بطالة، نحمد الله على كل حال.»

فقال: «لعل البحر كان هادئًا.»

فلم يسمع سوى صرير الأضراس، فارتدَّ مسرعًا، وأكبر الظن أنه أنذر قومه: «أكل يتامى ما لهم كاسب.»

فقد خف إلى الباخرة وفد كبير من شيوخ جدة وأعيانها، جاءوا — كما أرجِّح — لينظروا بأعينهم كيف نفترس الطافي ونغوص وراء الراسب، ونُعمِل أضراسنا في الجامد، ونعب في الذائب، ولكنا عجَّلنا قبل مقدَمهم. وفرغنا من هذا الشأن قبل أن يضعوا رجلًا على سلم الباخرة، فلما صعدوا إلينا ألفونا جلوسًا إلى المائدة ولكن المائدة لم يكن عليها شيء، ولم يكن يبدو علينا أثر من آثار الغارة التي شهدها الطبيب ووصفها لهم على التحقيق، فنهضنا لاستقبالهم في وقار وأبهة، ورحبنا بهم وانطلقنا نتحدث معهم ونستخبرهم عن جدة والمطر الذي سمعنا به، وهم يجسوننا بعيونهم ويستدرجوننا، ولكن هيهات! فانخدعوا وشكُّوا فيما رواه الطبيب لهم.

وكانت السماء قد جادهم منها هاضب سحَّاح، وأمطرتهم كما لم تمطرهم منذ أربعين عامًا على قولهم، فقلت: «أعوذ بالله.»

فقال أحدهم: «بل حمدًا لله وشكرًا.»

واستبشروا بنا وتفاءلوا خيرا بقدومنا، وأنساهم السرور بالمطر هول ما سمعوا عن كرَّاتنا على الطعام، وأشرقت وجوههم بعد شحوب وتفتَّحت نفوسهم لنا بعد أن كاد يقبضها الدكتور عنَّا بما صورَنا لهم. وانحدرنا إلى الزوارق البخارية بين عبارات الترحيب والتأهيل الصادقة، وكان جاري في الزورق أميرًا نجديًّا مُحرِمًا وفي يمينه بندقية، فلم أرتح إلى جيرتها وقربها من صدغي، فقلت له فجأة: «هذا فلان يسلم عليك.»

فاضطر أن ينقل البندقية إلى يسراه ليصافح صاحبي ولصقت به حتى لا أدع مكانًا تعود إليه إذا فكر في تحويلها إلى حيث كانت.

ولو أن الزورق سار في خط مستقيم إلى «الرصيف» لبلغناه في ثلاث دقائق، ولكنه اضطر أن يدور بنا حول الميناء فقطعنا المسافة في خمس وعشرين دقيقة؛ لأن مدخل الميناء مكتظ بالصخور والشعاب الحادة التي تقطع الحديد كالسيف. وقد فكرت الحكومة في إصلاح الميناء فخطر لها على ما علمتُ أحدُ أمرين: أن تطهرها وتعمقها، وهذا باهظ التكاليف، أو أن تبرز بالميناء فوق الصخور وهذا أيسر وأقل كلفة. وهناك رأي ثالث سمعت به ولا أدري إلى أي حد ينظرون إليه على أنه اقتراح جدي، وهو أن تُبنَى إلى جوار جدة مدينة جديدة على البحر يكون ساحلها أسهل وأخلى من الوعور؛ فإن إنشاء مدينة جديدة أيسر وأقل نفقة وتعبًا من إصلاح مدينة قديمة بهدمها شيئًا فشيئًا وإقامتها من جديد على مقتضى مطالب العصر فضلًا عن إصلاح الميناء وهو وحده مشكل.

وكان يستقبلنا على الرصيف قائمقام جدة الشيخ عبد الله رضا الزينلي ولفيف من الأعيان، وسيأتي الكلام عليه فيما بعدُ، فصعد بنا إلى بناء فيه موظفو الميناء، وجلس معنا في الشرفة إلى أن قرب الزورق الثاني فاعتذر وخف إلى استقباله، وتركنا مع المستر فيلبي وحقي أفندي سكرتير القنصلية المصرية وفريق من الأعيان، ولم يكن لهم جميعًا حديث إلا هذا المطر العجيب الذي سبقنا وكانت تحيتهم لنا: «جئتم بالغيث.»

ولهم العذر؛ فإن بلادهم صحراء جرداء ليس فيها نهر أو جدول واحد، واعتمادهم في معايشهم على المطر والآبار، فأما المطر فلا سلطان لهم عليه، وأمره بيد الله. وأما الآبار فقد كان عددها كبيرًا وكانت العناية بها شديدة، ولكن الأتراك لما اضطروا إلى الانسحاب من بلادهم في إبان الحرب العظمى، خرَّبوا أكثرها حتى لَخفيت معالم عدد ليس بالقليل منها، وعلى أن الآبار مهما كثرت لا تسد حاجات البلاد؛ لأنها تجف وتنشف، ومن هنا فكرت الحكومة السعودية في الآبار الارتوازية، وفي استخدام الآلات الحديثة لاستنباط الماء من جوف الأرض، واستوردت عددًا منها واتخذتها بالفعل في المدينة ومكة، وهذا خيرُ ما يسعها إلى الآن، مع العناية بالعيون وتعهُّدِها بالإصلاح.

وليس في جدة فنادق ينزل فيها القاصدون إليها، وإنما ينزل الناس في بيوت الأهالي، فمن شاء استأجر منزلًا بأسره، ومن كان لا يسعه ذلك قنع بغرفة مؤثَّثة على مثال «البنسيون» في مصر مع فروق طبيعية.

أما نحن فكُنَّا ضيوفًا على الحكومة، وكان العزم أن ينزلونا جميعًا في بيت واحد، ولكن الأعيان تزاحموا علينا فقسَّمونا ثلاث فرق: واحدة في بيت الشيخ محمد نصيف

وهو من وجوه جدة وكبار تجارها، وأصله مصري وله مكتبة خاصة هي أكبر مثيلاتها في الحجاز، وفي داره ينزل على ما سمعنا جلالة الملك عبد العزيز حين يكون في جدة. والفرقة الثانية في بيت الشيخ الفضل، وهو كاسمه من أهل الفضل والوجاهة، والباقون ستة كان من حسن حظي أني أحدهم، نزلوا في دار حسين أفندي العويني، وهو شاب سوري الأصل نزح إلى جدة لأسباب قومية، واشتغل فيها بتجارة واسعة ربيحة، وسيجيء عليه كلام.

ولم نكد نستقر في بيوتنا حتى قيل لنا: إلى بيت القائمقام! فنهضنا وركبنا السيارات الخاصة التي أُفرِدت لنا، وذهبنا نخوض بها شوارع جدة، وأقول نخوض وأنا أعني ما أقول؛ فقد خيل إليَّ أني في البندقية وأننا أحوج إلى القوارب والزوارق — أو الجوندولا — مِنَّا إلى السيارات. وكانت العجلات تغوص في الماء إلى النصف. ولشد ما عجبت حين نظرت فإذا سائق السيارة صبي لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره؛ فخفت أن يقلبنا في الأوحال أو يدخل بنا الحوانيت أو يحاول أن يصعد الحائط بالسيارة، ولكنه كان حاذقًا وكان كأنه يرى الطريق تحت الماء فيجنب الحفر ويتَّقي أن يرجنا. هذا على أن رأسه لم يكن ظاهرًا لنا لصغر جسمه، فلا أدري كيف كان يبصر الطريق، وكأني به قد حفظه عن ظهر قلب فليس يحتاج أن ينظر بعينه. وكان بارعًا في محاورة الماء والروغان من الأوحال والمهابط، فلم يسعني إلا أن أسأله: «هل تعرف الطريق إلى مكة؟»

فقال: «أي نعم. متي تذهبون إن شاء الله!»

قلت: «وفصيح أيضًا!» ورقص قلبي إعجابًا بمهارته وذلاقة لسانه، وحدثتني النفس أن أخطف ثلاثة أو أربعة من أمثاله أخفيهم في حقيبتي وأعود بهم مصر، فما رأيت مثل براعتهم وخفتهم ونشاطهم.

واستقبلنا القائمقام على باب داره، وتلكأت أدير عينيَّ في البيت من الخارج فارتد إليَّ وتناول ذراعي ومضى يصعد بي السلم، وهو شيخ بلغ التسعين أو أربى عليها، وأنا شاب لم أبلغ الأربعين، ومع ذلك كان يثب على السلالم وأنا أرفع نفسي بجهد واضح. وصعود السلم في البيوت الحجازية عمل شاق؛ لأن الدرجات عالية جدًّا، والبعض أعلى من بعض وأضيق، وبعضها طولي أو أقل قليلًا إلى أنفي، وقد قلت وأنا ألهث بعد أن بلغنا الدور الثالث حيث حجرة الاستقبال: لقد نجحت في الصعود، ففي وسعي الآن أن أشترك في الألعاب الأولمبية. ولم أكن أدري إلى تلك الساعة أن الهبوط أشق بفضل هذا الارتفاع الذي يؤثِرونه للسلالم، وأن النازل إذا لم يحذر خليق أن يهبطها مدحرجًا عليها، وقد وجدت بالتجربة أن آمن طريقة للصعود هي الزحف على اليدين والرجلين.

واستغربت كثرة الأبواب للبيت الواحد، وتعدد السلالم، فقد تكون صاعدًا في وديعة الله وحفظه، وإذا أمامك سُلَّمَانِ يذهب كل منهما في ناحية فلا تدري أيهما تأخذ: هذا أو ذاك؟ وخطر لي في أول الأمر أن سُلَّمًا يؤدي إلى حجرات الرجال، وأن الآخر يفضي إلى مساكن السيدات، ولكن خطر لي أيضًا أن الإكثار من السلالم المضلة والأبواب المحيرة قد يكون أثرًا من أيام القلق وعدم الاطمئنان، أيام كان الناس يُهاجَمون في دورهم على غِرَّة، ويكر عليهم المعتدون وهم آمنون في سربهم؛ فلا يبعد أن يكون الناس قد آثروا في الأصل هذا الطراز المحيِّر ليتسنى لهم أن يجدوا لهم ولذويهم مخرجًا أو مهربًا إذا اقتحم عليهم الدار عدو، أو لعل الخاطر الأول هو الأصح، فما أدري ولا وجدت من يدري، ومهما يكن من ذلك فإن الدار هناك داران على الحقيقة، وهي تبتدئ واحدة ثم تتشعب وتتعدد، ولا بد لهذا من حكمة خفيت عليَّ. أما السلالم فلا حكمة لارتفاع درجاتها إلى هذا الحد المرهق إلا أن تكون حكمة التزهيد في مكابدتها مرة ثانية. وما أكثر ما كان يخيل إليَّ إذ تنزل من أحد البيوت أننا نهبط من سلم غير الذي صعدنا عليه، حتى خطر لي أن أرسم بالقلم علامات على الجدران للتثبت وقطع الشك باليقين.

وبيت القائمقام أنموذج حسن لغيره من الدُّور التي رأيناها مع تفاوت بينها في السعة، وطرازها جميعًا شرقي عتيق، وأقرب ما يشبهه في مصر البِنَى القديمة في أحيائنا الوطنية الصميمة من مثل الجمالية والخرنفش. وللبيت بوابة تُفتَح وتُغلَق — وتُغلَق أكثر ممَّا تُفتَح — وفيها باب صغير يسمونه في مصر «الخوخة» ثم الفناء فالسلم الذي وصفناه لك، ثم طبقات يغلب أن تكون اثنتين أو ثلاثًا، وحُجَر الاستقبال في الطبقة العليا، وغرف المائدة في التي تحتها، وقد يجتمعان في طبقة واحدة فتفرد الأخرى للنوم، والأثاث فاخر والذوق فيه سليم، ليس فيه ذلك البذخ الذي ينم عن الخيلاء والذي هو أشبه «بالإعلان»، ولا تلك الكزازة التي تقبض النَّفْس وتصد القلب.

وكرم العربي ليس ككرم سواه؛ فهو يكرمك ويبدِّل لك كل ما يدخل في طوقه بل فوق ما في مقدوره، ثم كان الذي يصنع هذا سواه من فرط السكون والوداعة وقلة التظاهر. وقد كنت كلما دخلت بيتًا يختلط عليَّ الأمر، فأحسبه بيت رجل آخر غير الذي أعرف أننا مدعوون عنده؛ ذلك أن مضيفك لا يُثقِل عليك بالحفاوة ولا ينفرد بتحيتك ولا يبرز نفسه أو يؤكد وجوده، ولا تكاد تستقر في مجلسك حتى يشيع في نفسك الشعور بعدم الكلفة وبانتفاء القيود وبأن حريتك في حديثك وجلستك وفيما تشتهي نفسك غير محدودة، وكان القائمقام — على سِنِّهِ وتقدمه وسمته وأبهته — يخف إلى «الشيشة»

ويجثو حيالها ليصلحها أو يصنع فيها ما لا أدري فلست من هواتها، وكان الواحد منَّا بهم بأن ينهض ليصده عن ذلك تنزيهًا له عن هذه الخدمة، ولكن شيئًا في عينيه كان يقعد بنا ويغلنا عن الحركة.

ولم أرَ في حياتي وجهًا ناطقًا بطيب الخيم وأريحية النفس وبالعطف الشامل والحب الذي يريد أن يفيض على العالم كوجه هذا الرجل، وقد انصرفنا من بيته بعد أول زيارة وقد عشِقناه وشغِفنا به ولهجنا بذكره، فلما قال لنا المستر فيلبي إن القلوب مجمعة على حب هذا الرجل واحترامه لم نستغرب؛ فكأننا كُنَّا نعرف هذا من قبلُ. وقد كان قائمقام في عهد الحسين وابنه علي المعزولين، فلما جاء ابن سعود أقره في منصبه كما أقر كثيرين غيره كراهة منه للتبديل والتغيير اللذيْن لا معنى لهما ولا دافع إليهما سوى الهوى، وليس كل ما يروع المرء من القائمقام دماثته وسجاحة خلقه؛ فإن نشاطه وحيويته شيء عجيب، لا لمن كان في مثل سنه العالية بل لأي إنسان في أي سن، ثم هو إلى هذا واسع الدراية محيط بأخبار الأمم وسياساتها، عارف بنِيَّاتها ومساعيها، لطيف الحديث حلو المحضر، يزيده وقارًا قليل من الصمم، وسِنُّه أبدًا ضاحكة وعينه برَّاقة، فما أشوقني لأن أراه وهو ثائر الغضب!

وكان قد أعدَّ لنا غداءً ولكنا قلبناه عشاءً فقيل: «حسن. الساعة الأولى إذن.»

فملت إلى جاري وقلت: «سنموت هنا جوعًا.»

فقال بلهجة الفزع: «كيف؟ لماذا؟»

قلت: «ألم تسمع؟ العشاء الساعة الأولى. نحن الآن في الساعة الأولى بعد الظهر فسننتظر اثنتي عشرة ساعة أو أكثر حتى نأكل مرة أخرى. هذا صيام ولسنا في رمضان وأنا محتج.»

قال: «مهلًا مهلًا؟ إنها الساعة الأولى بالحساب الشرقي؛ أي بعد المغرب بساعة.»

فاقترح واحد أن نصلح ساعاتنا وأن نجريها على الحساب الشرقي، فسألته: كيف نفعل؟

قال: «تعتبر أن الشمس تغيب الساعة السادسة صيفًا أو شتاء، هكذا يفعلون هنا. المغيب الساعة السادسة (إفرنجية) بلا تغيير على مدار السنة وعلى هذا فأجر حسابك.»

فحرت لأن الشمس تغرب في الوقت الذي تشاء، لا في الساعة السادسة كما يريدها أهل الحجاز، وكانت ونحن هناك تستحسن أن تغيب فيما بين الخامسة والسادسة، وهي في الصيف تتلكأ أحيانًا إلى السابعة فلم أدرِ ماذا أصنع؟ أتكون الشمس غاربة وأقول

أنا — مجاراة لساعات الحجاز — إنها لا تزال طالعة؟ ثم كيف أوفق بين رقم الساعة والوقت كما يبدو لعيني؟ الحق أن هذه كانت عقدة.

ولما صرنا في بيوتنا قلنا نزور القنصلية، ونؤدي واجبنا ونحيي بلادنا فيها، وكان المطر قد عاد ينهمر. فسألنا حسين أفندي العويني: «هل القنصلية بعيدة من هنا؟»

قال: «لا … (ممطوطة) ليست بعيدة ولكن … ولكن المطر شديد والطريق أوحال.»

وقام إلى التليفون — أو الهاتف كما يسمونه أحيانًا — ليدعو السيارات لتُقِلَّنَا إلى القنصلية وليس للتليفونات أو للهواتف أرقام تتميز بها، بل عليك أن تدق الجرس فيجيبك «المركز» — وهو يقابل عندنا السنترال — فتطلب منه أن يصل ما بينك وبين فلان في بيته أو دكانه أو مكتبه أو عيادته كما تشاء، ويبطئ عليك العامل فتناديه: «يا فلان ماذا جرى؟ أعطني بيت فلان واصنع معروفًا.» ذلك أنك تعرف عامل التليفون — لا عاملته — كما يعرفك، وكان المطر قد أفسد أسلاك التليفون وعطَّل المخابرات، فوقف حسين أفندي العويني ساعة يعالج الكلام، ساعة كاملة بلا ملل أو ضجر، ومن غير أن يفكر لحظة في الجلوس أو الاستراحة.

وأخيرًا بعث بخادمه فجاءت السيارات وركبناها، وصاح حسين أفندي بالسائقين: «إلى القنصلية المصرية.»

فدارت السيارات وتحولت أمام البيت، ثم جرت أمتارًا ووقفت.

وقيل: «انزلوا! تفضلوا!»

قلت: «ماذا؟ هل أصاب السيارات عطب أو تلف؟»

قالوا: «بل وصلنا!»

وصلنا؟ نعم. فما كان بين البيت والقنصلية التي ركبنا إليها بعد لأي، سوى عشرة أمتار!

وقلت لما صارت الساعة السادسة والنصف (إفرنجي): «الآن فانهضوا إلى العشاء في بيت القائمقام.»

فقيل: بل لا يزال الوقت فسيحًا ولم تستوفِ الساعة الأولى دقائقها. قلت: ولكنها فعلت وقد غربت الشمس منذ ساعة تمامًا.

قالوا: كلا لم تغرب إلا منذ نصف ساعة.

فأسلمت أمري لله ولساعات الحجاز التي لا تعبأ بنهار أو ليل والتي يجري الزمن على وجهها ما لا يجري في بلادنا على وجوه ساعاتنا.

وليس في نيتي أن أصف كل وليمة حضرتها أو دار دخلتها؛ فإن هذا لا آخر له، فقد كنا نتغذى في بيت ونتناول الشاي في بيت والعشاء في ثالث، وربما تغدينا في جدة وتعشينا في مكة، أو بالعكس.

ولكني سأذكر القليل الذي يدل على الكثير وينبئ عنه؛ فقد سمعت أن فريقًا من المصريين لا يصدقون أن أهل الحجاز يعرفون الأكل على الطريقة الحديثة، فلهؤلاء أقول: إن الحجاز ليس مجهلًا من مجاهل آسيا أو أفريقيا، وإنه وطن الإسلام وإليه يحج المسلمون من أقاصي الأرض وأدانيها، وإنه بلاد متحضرة سوى أنها فقيرة، والفقر لا يمنع الأناقة ولا يحول دون التهذيب، ومن الغرور الذي لا يُشَرِّفُ صاحبه أن يتصور المرء أن الحجاز — لأنه على البحر الأحمر ولأنه ليس مَصِيفًا أو مشتًى للمترفين مِنَّا وبغاة المراقص وطلاب الملاهي — يجب من أجل ذلك أن يكون مستوحشًا وعلى الفطرة الأولى.

وليس في الحجاز فنادق أو مطاعم عامة، ولكِنَّا دُعِينا في كل مكان حتى في قلب الصحراء وتحت الخيام، إلى موائد على الطريقة الغربية، عليها من الآكال ما يندر أن تقع عليه العين أو يذوقه اللسان حتى في مصر المتحضرة.

وهم لا يراعون في الجلوس إلى الموائد ترتيبًا معينًا، وكانوا معنا على الأقل أحذق وأدقَّ مجاملة من أن يتوخوا ترتيبًا، فكان مَن شاء يجلس حيث يشاء، حتى لا يشعر أن غيره مفضل عليه أو مقرب دونه أو مختص بإيثار.

والقوم في الحجاز لا يأكلون سوى مرتين في الأربع والعشرين ساعة: مرة حوالي الساعة العاشرة، والثانية حوالي الرابعة أو الخامسة. وأحسب أن جو البلاد هو الذي اقتضى هذا التخفيف، ولكنهم توخَّوْا مثل عاداتنا في مصر من أجلنا. وغيَّروا مألوفهم وجروا على مألوفنا.

والأطعمة التي تناولناها فيها صَنعة حسنة وذوق يجمع بين الأسلوبين العربي والتركي. وقد يحدث أن يُقَدَّمَ لك بعد بضعة ألوان طعام حلو فتحسَب أنك قد قاربت النهاية، ويسرك ذلك فرارًا من كظ المعدة بألوان عدة لا آخر لها، وإذا بهم بعد الحلوى يكرون إلى اللحوم والخُضَر وما إلى ذلك على نحو ما كان يجري هنا في مصر في الأعراش على الطريقة التركية القديمة.

وأحب أن أعين القارئ على تصوُّر حالة جدة وعمل البلدية فيها. فأقول إن الطرق غير مرصوفة كما هي في مصر ولكنها نظيفة على الجملة، وقد أصارها المطر بركًا

وبحيرات، وهو مطر ملأ صهاريج الثغر كلها، ومن بين هذه الصهاريج واحد سعته — بحسابهم — مائتان وأربعون ألف «صفيحة». فإذا اعتبرت أن «القربة» تعادل أربع «صفائح» كانت سعة الصهريج ستين ألف قربة، وقد قيل لي إن الماء الذي في الصهاريج يكفي موسم الحج، وإنما ذكرت الصهاريج ومثَّلت لسعتها ليتسنى للقارئ أن يكوِّن لنفسه فكرة عن المطر وما صنع، فقد هدم بيوتًا وقوَّض سُقُف بعض الأسواق، ولم يَبْقَ بيت لم يقطر الماء من سقفه، والبِنَى هناك ضعيفة، وقد قضينا الليلة الأولى في جدة فأصبحنا وقد انقطع المطر فانطلق عمال البلدية ينزحون الماء ويجرفونه لأوحال، فلما جاء العصر عادت الطرق نظيفة مأمونة. وأحسب أنهم ضاعفوا الهمة من أجلنا، ولكنه نشاط على كل حال.

والأغنياء هناك لا يدَّعون الفقر ولا يكتمون مالهم وإن كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البذخ، والتجارة سوقها رابحة مع الغرب والشرق، والأحاديث صريحة والألسنة طليقة، وفي هذا دلالة على الاطمئنان، وقد كان الناس على ما علمت في العهد السابق يُخفون أموالهم ويتظاهرون بالمتربة ورِقَّة الحال؛ خوفًا من الابتزاز أو الاقتراض الذي هو في حكم الاغتصاب والمصادرة، أما الآن فيقول لي بعض الأصدقاء: إن الحكومة في آخر العام قد تقفر خزائنها فتحتاج إلى المال فتقترض من الأعيان، حتى إذا جاء موسم الحج ردَّت إليهم ما أقرضوها بلا رِبًا.

وقد سألنا — في طريقنا إلى مكة — سائق السيارة — وهو شاب، حدثنا أنه كان أحد أفراد الفرقة الموسيقية في جيش الحسين — عن الفرق بين العهدين، فكان جوابه أن الأمن مستتب على أحسن حال، وأنه ما من أحد يجرؤ أن يسرق أو يمد يده إلى شيء في الطريق.

فقلنا له: وأي العهدين خير؟

فقال: «لكل زمان دولة ورجال.»

فصرفنا السرور بتمثله بالشعر والتعليق على ذلك عن سؤاله عمَّا يعني.

بين جدة ومكة

الأرض في جدة دائرة. هذه حقيقة لم يسعني، بعد يوم واحد، إلا أن أسلم بها وأقطع بصحتها. وقد تكون الأرض هناك كروية أيضًا — أو كرية، فما أدري أيهما الذي لا غبار عليه — بل هي كروية أو كرية في بعض المواضع ولا سيما في الشوارع، ولها محاور حقيقية لا خيالية وإن كانت لا تدور عليها، ولكنها دائرة على التحقيق، إذا كان هناك شك في كرويتها، على الأقل كلها. وما أسرع ما فطنت إلى هذه الحقيقة الجغرافية الخاصة! فقد كنا مدعوين إلى الشاي في وزارة الخارجية، فلما دنا الموعد أشرفت من النافذة فلم أرَ السيارات، فرددت البصر إلى التليفون فإذا هو لا يزال في مكانه، ولكن صاحب الدار لم يكن حاضرًا، والتليفون في الحجاز يتطلب مهارة كانت تنقصنا، ويحتاج إلى معارف لم يتسع الوقت للإحاطة بها، وكان الخادم قريبًا ولكني استحييت أن أطلب معونته لئلَّا يتوهمنا بعض الهمج من أفريقيا. فسألت الله العون ومضيت إلى التليفون ودققت الجرس مرة، فلم يجبني أحد، فدققته ثانية فلم يعبأ بي مخلوق، فهززت «الشنكل» وأنا يائس، أقول لنفسي إن من لا يحفل الجرس أولى به ألَّا يكترث «للشنكل»، وعاودت الدق والهز مرات، ثم وضعت السماعة وجلست إلى جانبه.

فقال لي أحد الحاضرين: «لِمَ سَكَتَّ؟ دق له!»

قلت: «أأظل أدق إلى المغرب؟»

قال: «لا يا سيدي. دق الجرس ونادِه!»

فراقني هذا ونهضت مرة أخرى وعدت إلى الجرس أدقه وأقول: «يا أخانا! يا حبيبي! يا سيدي ونور عيني وتاج رأسي!»

فلم يعجبه الفصيح الصحيح من اللغة، فقلت أخاطبه بالعامية لعله لها أفهم: «يا أخينا! أنت يا شيخ أنت! ياللي جوه! نبحت حسي ووجعت قلبي. رد يا أخي بقا، الله يقطعك!»

فلم تنفع هذه الرقية، وهممت بالعقود مرة أخري فقال صاحبي: «لا لا لا. ناده باسمه يا أخي!»

قلت: «حسن. وهل مفروض في المصري الذي يأتي إلى جدة أن يعرف اسم عامل التليفون؟ لا بأس!» ووضعت فمي على البوق وجعلت أصيح بما خطر لي من الأسماء لعل واحدًا منها يوافق الصحيح: «يا محمد. يا أبو بكر. يا عمر. يا عثمان. يا علي. يا معاوية. (لزملائي: يظهر أنه أعجمي) يا ناصر خان. يا أزدشير. يا شتربة. انطق قبحك الله! (هل فيكم من يحضره اسم آخر فقد أطار هذا اللعين محفوظي؟ لا بأس) يا بطليموس ...»

وهنا قاطعني صاحبي وانتزع السماعة مني ووقف يقول: «يا مركز ... يا مركز ...»

فسألته: «هل هذا اسمه؟»

فلم يعبأ بي ومضى يقول: «أجول لك. يا مركز، أعطني القناعة. نعم القناعة، رجاء.» فوصله بشركة القناعة للسيارات.

ولكني لم أركب سيارة؛ لأن الجهد العقيم الذي بذلته أمام آلة التليفون أحوجني إلى الرياضة، فقلت أتمشى إلى الخارجية فهي قريبة مِنَّا. فوافقني اثنان وخرجنا وسِرْنا على بركة الله نميل مع الطريق حيث يميل، ويصف بعضنا لبعض ما شاهد إلى الآن وماذا كان وَقْعُ ذلك في نفسه، وطال الأمر علينا وخيل إليَّ أننا ندور ونعود إلى حيث كنا، فخطر لي أن أسأل لنهتدي، فانتظرت حتى لقينا فتى فقلت له: «هل لك أن تدلنا على وزارة الخارجية؟»

فحملق في وجهي وقال: «أيش تقول؟»

قلت: «وزارة الخارجية التي فيها حضرة صاحب المعالي الوزير ...»

فجذبني أحد الزميلين وقال: «يا أخي أنت فين؟»

فغاظني ذلك واستثار عنادي فقلت: «اسكت أنت من فضلك. قل لي يا صاحبي، صف لي الطريق.»

فقال كلاهما مغمغمًا قدرت أنه الوصف الذي أطلبه وأشار بيده فقلت لصاحبي: «هيا بنا. لقد عرفت منه الطريق.»

فقال أحد الرفيقين: «ولكن ماذا قال لك؟»

قلت: «إن ما قاله لي لا يهم، ويكفيك أني فهمت مراده.»

فقال: «ليتني على يقين من ذلك؛ فإن الواقع أننا نسير في دائرة، وقد رأيت هذا المسجد أربع مرات على الأقل.»

فأكدت له أن هذا كذب لا يليق ولا يشرف بلاده التي يمثلها هنا، وإن كان لم يَعْدُ الحقيقة فيما قال. وصار لا بد من اجتناب الرجوع إلى هذا الشارع إذا أردتُ أن لا يشمت بي صاحبي. فملت بهما إلى طريق جديد لم نضرب فيه من قبلُ وإذا بنا بعد ثلاث دقائق نعود إلى المسجد.

فقال صاحبي بلهجة الشامت المنتقم: «ما قولك الآن؟ أليس هذا هو المسجد بعينه؟ هذه خامس مرة أراه في ثلث ساعة.»

قلت: «محال، إنه ليس أكثر من المساجد في هذه البلاد وهي جميعها متشابهة.»

وأسكتُّه بهذه المغالطة وعمدت إلى أول رجل صادَفَنا بعد ذلك فسألته عن الطريق إلى وزارة الخارجية، فصاح بي صاحبي: «ما دمت تقول «وزارة الخارجية» فلن يفهم كلامك أحد. يا أخي أنت في الحجاز لا في مصر.»

وهكذا ظللنا نسأل والناس لا يفهمون عنَّا وأخيرًا يشيرون بأيديهم فنمضي ولكن إلى حيث بدأنا.

فاقتنعت بحقيقتين: أولاهما أن الأرض هنا دائرة في كل ناحية، وقد أسلفت القول في ذلك. والثانية أن على من يسأل الناس عن طريق أن لا يسير إلى حيث يشيرون.

والمدهش أننا مررنا بالخارجية وكنا نسأل الناس عنها ونحن واقفون أمام بابها! وفي آخر مرة كنا على إفريزها، لأن سيارة كانت مقبلة فخفنا أن ترشنا عجلاتها بالوحل فصعدنا فوق الإفريز لنتقي ذلك وإذا بها تقف وينزل منها بعض زملائنا.

وقد رأيت «برج بيزا» المائل من نافذة وزارة الخارجية أو دارها أو لا أدري ماذا يسمونها هناك. وكنا نتناول الشاي جماعات وجماعات على موائد صغيرة، وكنت قريبًا من النافذة فنظرت فإذا مأذنة مائلة جدًّا، فأطلت النظر إليها وأنا أتوقع أن تنقض، فقال لي جاري: «ماذا يروقك؟»

قلت: «ألا ترى هذه المأذنة المائلة؟ إن أمرها عجيب. ولا أدري ماذا يمنعها أن تسقط؟ لعلها لا تريد أن تزعجنا.»

فنظر جاري وعجب، ومن حقه ذلك، فقد كان انحرافها شديدًا، فسألنا واحدًا من أهل الحجاز عنها فابتسم وتنحنح وقال كلامًا لا يقنع، واعتذر بأن المباني في الحجاز

ليست متينة أو حسنة جميلة كمباني مصر، فبيَّنَّا له أن المتانة والجمال لا شأن لهما ولا قيمة، وأن المسألة أن هذه المأذنة لا يمكن أن تظل ذاهبة في الهواء لأن مسقطها خارج القاعدة، فإذا كانت مع ذلك ستبقى قائمة فتلك معجزة ولا شك، ومن حق الحجاز حينئذٍ أن يباهي بها برج بيزا المائل بل أن يدل بها عليه.

ولما صرنا في الطريق مرة أخري رفعتُ عيني إلى المأذنة فإذا هي مستقيمة لا مَيْلَ فيها ولا انحراف، رجعت أعدو إلى الخارجية فإذا هي تبدو من النافذة مائلة، فانحدرت إلى الشارع وأَجَلْتُ النظر في بناء الخارجية فلم أر شيئًا يلفت النظر فحرتُ، وأخيرًا بعد أن حاورتني المأذنة وخايلتني حتى كاد يطير رأسي حللت اللغز؛ ذلك أن جدران الغرف غير متساوية الارتفاع فأرضها مائلة، فإذا جلسنا فيها بدت لنا الأشياء منحرفة.

وخرجنا يومًا نتنزه على امتداد الشاطئ فيما وراء جدة، ولجدة سور قديم لا خير فيه إذا كان المراد به الحماية، وكان هناك — في السور — باب كبير للدخول والخروج، ومنه يأخذ المرء أحد الطريقين إلى مكة أو المدينة، فلما جاءت الحكومة السعودية رأت أن بابًا واحدًا لا يكفي، ففَتحت بوابتين كبيرتين: واحدة للدخول والثانية للخروج، وأقامت بينهما مخفرًا يسأل الرائح والغادي ويرقب الحركة بينهما، والأمر تافه لا يستحق الذكر، ولكنه بعض التنظيم الذي أدخلت الحكومةُ السعودية وارتاح به الناس، وهم هناك يضيفون هذا إلى أمثاله ويتَّخِذون من ذلك كله شواهد على اتِّجاه النية نحو الإصلاح، بقدر المستطاع.

ورأينا على مسافة نصف ساعة من جدة بيوتًا بعضُها من الشعر، والبعض جدرانه — إن صحت التسمية — من جوانب صفائح الغاز، وسقوفها كذلك من الخيش أو هذه الصفائح، وبعض البيوت من اللبِن، وخلال هذه البيوت الغنم والجمال، وحولها الكلاب، ولكن المطر هدم البيوت المبنية وأبقى على الشَّعر والصفائح. وقد وقفنا نتأمل هذه البيوت المتقوضة وخُيِّلَ إليَّ وأنا أحدق فيها أني صرت للشعر العربي أحسن فهمًا، بعد أن رأيت بعيني ما الطلول الدوارس، وهو إحساس ظل يلازمني وأنا في الحجاز فكلما رأيت منظرًا من الجبال أو السهول والأودية أو الكثبان أو المراعي أو الدُّور أو الخيام؛ زِدْتُ شعورًا بصدق تصوير العرب لحياتهم في أشعارهم، ولم أستغرب شيئًا مما كنت أَمَلُّهُ وأستثقله من لجاجتهم في وصف الطلول والأسفار والرواحل، والولع بذلك وإيثاره وتقديمه، وصار لهذا وما إليه معنًى جديدٌ عندي ومساغ إلى نفسي، وقد كنت حين أطلع

شعر العرب — قدماء أو مولَّدِين — أتخطى هذه الأوصاف؛ إذ كنت لا أجد فيها متعة ولا أراها تنقل لي صورة لها قيمتها في نظري. فالآن أعود إلى هذا الشعر الذي كنت لا أطيقه فأرى الحياة تدب فيه وتفيض منه، وإنما أعني شعر القدماء المقلِّدين من المولَّدين أو المحدَثين الذين يقولون على السماع والمحاكاة.

وفي السهل الواقع شرق جدة ثكنة للجنود واسعة رحيبة، ومركز للاسلكي وحظيرة للطيارات. وليس في هذا كله ما يستوقف المرء، فما منه شيء غريب، ولكن هناك أيضًا على مقربة من الثكنة فضاء رحيب مسوَّر سُدَّ بابه بالحديد، وكان الناس يفِدُون إليه زائرين بل حاجِّين؛ لأن فيه على المشهور هناك قبر حواء، وقد هدَمه السعوديون ولم يُبقُوا من قبابه شيئًا، ومنعوا الناس أن يزوروه. وحدثني بعض مَن شهِدوه قبل تقويضه أن طول القبر أربعون قدمًا، وأنه كانت هناك عدة قباب صغيرة على رأسها وصدرها إلى آخر جسمها، وكان الاعتقاد السائد أن أُمَّنَا حواء بهذا الطول، ولهذا مدوا قبرها وذهبوا به طولًا وعرضًا، فإذا صح هذا، فقد كانت أمنًا إذن مهولة، ولا عجب أن تلد كل هذه الخلائق وأن تكون أم هذه الأناسي كلها في الشرق والغرب؛ فليت من يدري كيف كان آدم؟ لا شك أنه كان أفحل وأهول، ومع طولهما وعرضهما خدعتهما الحية وأخرجتهما من الجنة. فليست العِبرة إذن بالطول! وفي هذا عزاء لي عن قِصَر قامتي!

ولم أرَ في الحجاز امرأة ولا بائعًا متجولًا ولا شيخًا همًّا يقوم على الراحتين، ولا جنازة ميت. فأما المرأة فلم أستغرب الحجاب المضروب عليها، فنحن في مصر لا يزال مِنَّا من يحجب المرأة ويوصد عليها الأبواب. وأما الباعة المتجولون فلا حاجة بأحد إليهم في مدينة صغيرة لم تتباعد أطرافها ولم تَفْشُ فيها المدنية ولا يزال الزمن يدور فيها متمهلًا متباطئًا. ولعلِّي لم أَرَ مُقْعَدًا أو سَطِيحًا أو كسيحًا لأني لم أبغهم حيث يكونون، ولكنهم على كل حال لا يُرَوْن في الطرقات وعلى أبواب المساجد وأفاريز الشوارع. ولكني استغربت أن أقضي ستة أيام في الحجاز فلا تقع عيني على جنازة ميت، ولا أسمع أن أحدًا مَلَّ هذه العاجلة وآثر عليها الآجلة، ولا أدري ماذا يغري الناس هناك بالبقاء ويُحبِّب إليهم الدنيا وهي بلاقع، على حين يستطيعون أن ينتقلوا في طرفة عينٍ إلى الفردوس وقصوره وحوره وولدانه وأنهاره من لبن وعسل وخمر!

ولقد اضطررت أن أسأل عن ذلك فضحك الرجل وربت على كتفي وهَمَّ أن ينصرف عني، ولكني تعلقت به وسألته: «اصدقني، هل أنتم تموتون في سركم؟»

قال: «في سرنا؟ ماذا تعني؟»

قلت: «أعني أنكم تموتون أو لا تموتون؟»

قال: «كيف لا نموت؟ إن الموت حق.»

قلت: «لست أراه حقًّا هنا.»

قال: «أستغفر الله العظيم. يا رجل!»

قلت: «أستغفر الله ألف مرة، ولكن لماذا لا تموتون؟»

فقال مبتسمًا: «هل تكره لنا الحياة؟»

قلت: «لا أكرهها لكم، ولكني أكره أن نموت دونكم، لماذا يكون الموت حقًّا علينا وحدنا؟»

وقد أَبَوْا أن يموت منهم ولو واحد فقط ليقنعني، حتى ذلك الطبيب الذي كان يقتلني بمَصْليه، لم تهن عليه نفسه ولو إكرامًا لخاطرنا أو في سبيل التدليل على صحة النظرية — فهي في الحجاز نظرية فقط — القائلة إن الموت حق. كأن وظيفة الطبيب أن يميت ولا يموت.

وسيذكرني الحجاز دائمًا بأن عصاي قطعت الطريق بين جدة ومكة، قطعته ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية، وردت الناس من الجانبين، ووقفتهم صفين من الناحيتين متقابلين على أقدامهم إلا من شاء أن يضرب في طريق آخر ويسير على نهج جديد.

وشَرْحُ ذلك أنَّا في اليوم الثالث تغدينا عند الشيخ الطويل، صاحب شركة القناعة للسيارات، وقد كان على عهد الملك الحسين مديرًا للجمارك، وكان صاحب مال وفير فأتى عليه الاقتراض منه، فلم ينقذه إلا انقراض حكم الحسين وابنه علي ومجيء العهد السعودي بالأمن والطمأنينة وحرية التجارة. فاتَّجر بالسيارات وعاد فوقف على رجليه.

وكان المقرر أن نركب إلى مكة بعد الغداء مباشرة، ولكن الأكل طال والألوان تعددت فنسِينا مكة وذهلنا عن كل شيء، وأخيرًا قُمْنَا عن المائدة آسفين متلفتين متلكئين، وذهبنا إلى بيوتنا فخلعنا ثيابنا ونضونا كل ما على أجسامنا ولففناها — أعني أجسامنا — في مشامل — كالبشاكير — غير مخيطة، حتى أقدامنا خلعنا أحذيتها واعتضنا منها السباعيات، وهي نعال لها سبعة سيور من الجلد تدخل في بعضها الأصبع ويلتف البعض حول المفاصل، ورمينا طرابيشنا، ثم جمعنا ثيابنا في الحقائب وتوكلنا على الله.

وركبنا سيارة لا أدري من أي طراز هي، وإنما الذي أدريه أنها كانت فخمة وجديدة، وأنها لم تخرج إلا في يومنا ذاك، وقلنا للسائق: سر على بركة الله وبقوة البنزين

الذي خلقه الله، واعلمْ أننا سنتعشى عند سمو الأمير في قصر جلالة الملك بإذن الله، وأن عليك أن تبلغنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفي للطواف والسعي ثم ارتداء الثياب.

فقال: «الله معنا. إن السيارة جديدة وليس في وسعي أن أسرع بها لئلا تتلف.»

فقلنا: «فلتتلف؛ فإن موعد الأمير لا يمكن إرجاؤه.»

وما زلنا به نلح عليه ونحاوره ونداوره حتى أطلقها ومضى بسرعة خمسين كيلو. وجزنا أول محطة في الطريق ومضينا نبغي الثانية وإذا به يُطِلُّ ثم يقف ويلتفت إلينا ويقول: «حريق! انزلوا!»

ففتحت الباب من ناحيتي وأسرعت فنزلت، ويظهر أن عصاي التي لم أُعْنَ بها من فرط الفزع سقطت إلى الأرض، وصار في وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة أن ننظر إليها وأن نرى الدخان صاعدًا من بين عجلاتها، والسائق يهيل عليها الرمل عوضًا عن الماء فانقطع الدخان وشرع يعالجها، وكانت سيارتان قد أدركتانا ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث، واقترح رياض أفندي المصور أن يرسمنا ونحن مُحرِمون.

ولا أطيل. ركبنا السيارة واستأنفنا السير على مهل، وأُنسيت العصا لأن الخوف من احتراق السيارة صرفني عنها، وجعلت وُكْدِي طول الطريق أن أخرج وجهي من نافذة السيارة وأنظر إلى العجلة من ناحيتي وأن أشم، لعل دخانًا صاعد فأنبه السائق.

والطريق إلى مكة طريقان: واحد للسيارات وهو حسن ومكبوس بما نسميه «وابور الزلط» وقد رأينا «الوابور» يستريح عند سفح الجبل، والآخر للجِمال والمُشاة، على يميننا ويسارنا، والجمال التي رأيتها صغيرة وهي أشبه بالبعران في بلادنا، وأحسبها كذلك لضعف المرعى وقلة القوت، وهي تسير قوافل قوافل، وقد عددت خمسين جملًا في قافلة، وكانت تحمل بضائع شتى في الصناديق والأكياس أو الغرائر، وليس معها سوى طفل واحد هو كل حرس هذه القافلة المغرية.

وليس أحلى ولا أفتن من منظر الأطفال حين يحاولون ركوب الجمل، والطفل لا يُبْرِكُ الجمل حين يريد أن يصعد إلى ظهره، وإنما يعمد إليه وهو سائر ويتعلق بذيله ويتخذ من هذا الذيل حبلًا أو سُلَّمًا أو مرقاة مستعينًا بقدميه يخطو بهما على فخذي البعير كأنهما جداران، ثم إذا هو فوقه.

وأمتع من ذلك وأبعث على الدهشة أن ترى بعيرًا على سنامه رجل وعلى عسيبه — عظم الذنب — طفل، والعسيب منحدِر وعظمته حادة فكيف يقعد عليها الطفل وماذا يمسكه فوقها؟ ساقاه يقبض بهما على الجانبين.

وبلغنا الشميسة قبيل الغروب بدقائق — إذا اعتبرنا ساعتي وهي بالحساب الغربي — وقبله بأكثر من نصف ساعة إذا اعتبرنا أن الحجازيين يُحَتِّمُون على الشمس أن تغيب في الساعة السادسة لا في منتصفها.

وهناك في الشميسة استقبلَنا وفد طويل عريض من مكة جاء ليرحب بنا ويحتفي بمَقدَمنا، وبينما نحن نتحادث دُعِيَ مدير الشرطة أو لا أدري من هو إلى التليفون، فاستأذن وذهب ثم عاد يسأل: «هل لأحدكم عصا؟»

قلت: «نعم أنا لي عصا ولكنها واللهِ في السيارة. تركتها فيها؛ لأني لا أدري هل يجوز أو لا يجوز أن يحمل الُمحرِم عصا.»

قال: «ما أوصافها؟»

قلت: «وما شأنك أنت بالله؟ هي عصا والسلام.»

قال: «لا لا لا. لقد وُجِدَتْ عصا في الطريق قرب الرغامة فقطعت على الناس السبيل.»

فضحكت وقلت: «أؤكد لك أن عصاي تحترم القانون ولا تخرج على النظام ولا تعرف قطع الطريق.»

فلم يجُد حتى بابتسامة، وضاعت عليَّ النكتة في هذا البلد الجاد، وقال: «ابحث عنها من فضلك؛ فإن الطريق مقطوع ولا أحد يروح ولا أحد يغدو.»

فهرولت في مشاملي إلى السيارة فلم أجد العصا فعدت وقلت له: «هي عصاي قاطعة الطريق، فاسمح لي أن أعتذر بالنيابة عنها.» فمضى عني إلى التليفون، وخفت أن يأخذوني بها ويجزوني بما صنعت؛ فإن للقوم هنا شريعة غير القانون المدني، فعدوت وراءه وأسررت إليه وهو يتكلم في التليفون: «اذكر من فضلك أن الله تعالي يقول في كتابه المنزَّل «ولا تزر وازرة وزر أخرى»».

فلم يزد على أن التفت إليَّ وقال: «هل نردها إلى جدة أو ندركك بها في مكة؟»

فقلت: «لست أريدها واللهِ فإنها فاجرة كما ترى وأخشى أن ينزو برأسها خاطر آخر، أفلا يمكن دفنها في الرمال مثلًا؟»

فقال للتليفون لالي: «أرسلها مع الشرطة إلى الضيافة.»

فصحت به: «لا لا. ردها إلى جدة من فضلك فحسبي ما صنعت.»

فقال لمخاطبة في التليفون: «بل ردها إلى بيت العويني في جدة رجاء.»

ثم التفت إليَّ وقال: «هيا بنا فقد تأخرتم.»

ولست مبالغًا فيما رويت عن عصاي وما صنعت، فقد كنا في الطريق إذا بلغنا محطة واحتاج السائق إلى ماء يبرد به جوف هذه السيارة الذي يغلي، نصيح بأحد

الواقفين: «هات ماء.» فلا يتزحزح ولا يدنو منا بل يقول وهو واقف مكانه: «تفضل.» فينزل السائق ويجيء منه بما يريد. وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الذوق فقيل لنا: بل هو الخوف من أن يدنو الغريب من السيارة فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شيء من الأدوات أو ممَّا تحمل السيارة فيُتَّهَم الرجل بالسرقة. وجزاء السارق هناك قطع اليد، وقد أمَّن ابن السعود الناس على أرواحهم وأموالهم بشيئين: بقطع يد السارق وبما يسمونه التصبيحة.

فأما السرقة وقطع اليد فأمرهما ظاهر لا يحتاج إلى بيان، وقد قسا ابن السعود في أول الأمر ليزجر اللصوص، حتى لقد حكوا لي أن رجلًا جاءه بكيس فيه بُنٌّ وقال له: «هذا كيس بُنٍّ وجدته في الطريق.»

فسأله: «ومن أدراك أن فيه بنًّا؟ جسسته أو فتحته ونظرت فيه، ولو وجدت فيه مالًا بدلًا من البن لأخفيته ولم تُظهرْه ولم تسعَ به إليَّ. كلا! حتى الجس لا يجوز. اقطعوا يده.»

ومن أجل ذلك يقع الناس على الشيء في الطريق فلا يقربونه أبدًا، بل بلغ من ازدجارهم أنهم ربما مالوا إلى طريق آخر غير الذي فيه هذا الشيء المطروح حتى يمر شرطي فيحمله ويبحث عن صاحبه، ويمروا هم بالشرطي فيُبلِغوه. وإذا لم يقعوا على صاحبه نشروا في «أم القرى» إعلانًا تحت عنوان «لقطات».

أما التصبيحة فشيء آخر، تكون هناك عشيرة ضربت بالسطو فينذرها ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة، فإن كفت وتركت الناس آمنين واستقامت على الهدى فبها ولله الحمد، وإلا همس في أذن واحد من قواد جيشه أن يُصبِّحها فيذهب الرجل في فرقة من الجيش من غير أن يفضي إلى أحد بغايته ومقصده، ويجنب في طريقه إلى العشيرة مواضع الماء، ويضرب بجيشه في الصحراء التي لا تطؤها قدم ليظل أمره خافيًا وغايته مكتومة، ويقع على العشيرة في الفجر فيصلي بجيشه ثم يطلق عليها رجاله فيُصبِّحونها وهم يصيحون: «هبت هبوب الجنة. أين أنت يا باغيها؟»

«خيالة التوحيد إخوان من أطاع الله.»

فلا يبقون ولا يذرون.

ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مذ دخل الحجاز؛ لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه إلى تصبيحة أخرى.

والطريق إلى مكة وادٍ غير ذي زرع، وعلى جانبيه جبال شتى الشكول متفاوتة العلو، ومناظرها تُوقع في الرُّوع أنها غاصة بالمعادن المختلفة، ولست أعلم أن أحدًا

درس طبيعتها، وفي الطريق محطات أو استراحات، يجد فيها المسافر القهوة والشاي، ويستطيع أن يبيت فيها إذا أدركه الليل أو التعب أو كلَّت مطيته، وكبراها بحرة في منتصف الطريق، ولها سوقٌ دكاكينها من الخيش والخشب، ووراء السوق على الجانبين البيوت الساذجة فيها عيادة أنشأتها الحكومة أو مستشفى صغير لمن يقعد به المرض في الطريق من الحجاج أو الأهالي، وفي كل محطة مخفر وتليفون. ولم أستغرب هذا الطريق الموحِش ولم أجد فيه جديدًا؛ فإني في مصر أعيش في رقعة من الصحراء وإلى جانبي الجبل.

وقد دخلنا مكة بعد العشاء.

في مكة

دخلنا مكة لا أدري متى، بعد العشاء أو بعد المغرب، في الظلام والسلام؛ فما في الوسع أن يعتمد المرء في الحجاز على ألوان النهار والليل لمعرفة الوقت، أو يركن إلى الشمس أو حتى إلى القمر، وقد انتهيت بعد ثلاثة أيام إلى إساءة الظن بالشمس والإيقان باختلال دورتها. وهل كان في مقدوري أن أكذِّب ما أجمعت عليه ساعات الحجاز الجديدة وأن أصدق هذه الشمس القديمة وحدها، ولم تكن ساعتي على يدي فقد تركتها مع ثيابي لما لففت نفسي في مشامل الإحرام، فلا عجب إذا كان الأمر قد اختلط عليَّ فلم أعد أميز بين النهار والليل.

بعد العشاء إذن أو بعد المغرب — كما تشاء فكله ليل — شارفنا مكة فنفخ السائق في بوقه تنبيهًا وزجرًا للناس عن الاحتشاد في طريقه، وفتحت أنا الشباك لأنظر فلم تأخذ عيني شيئًا، حتى رمال الطريق وصخور الجبال لفها الظلام في شملته، فاضطجعت وقلت إن لي شأنًا غير شأن أصحابي، هم يدخلون مكة دخول الغريب عنها فمن حقهم أن يتطلعوا ويشرفوا وينظروا ويتأملوا — إذا وسعهم ذلك — ولكني أنا ابن هذه البلاد، بل ابن هذه البلاد، بل ابن مكة بالذات؛ فإن جدتي لأمي مكية زوَّجوها وهي بنت عشرين سنة رجلًا فحلًا من أهل المدينة فنشزت فطلقوها منه ثم احتملوها إلى مصر بعد وفاة أبيها وخراب بيتها وتجارته فتزوجت جدي، ثم إن أبي مازني مثلي، وقد انحدرت إليه هذه «المازنية» ثم إلى بعده على نحو ما انحدرت إلينا «الآدمية»، وهذا كله مفسَّر في «صندوق الدنيا» فيرجع إليه من شاء من طلاب هذه الأنساب العريقة.

وقد أسلفت القول على قبر حواء جدتي العليا ولست أكتم القارئ أني تأثرت جدًّا وأن الدمع غلبني حين ألفيت نفسي — أنا الغريب البعيد عن وطني وأهلي وأصحابي وعن كل من يُعنى بي أو يكترث لي — واقفًا أمام قبر جدتي! وصحيح أن القرابة بعيدة

ولكنها على كل حال من رحمي، أو أنا على الأصح من رحمها، ولم يخالجني ظل من الشك في أن هذا قبرها على التحقيق؛ فقد حن الدَّمُ في عروقي إليها، وكان حنينه بالغريزة التي لا تخطئ، ولن يكذب الدم فإنه ليس بماء، وشعرت بأن مَعِين حبي البنوي لها قد جاش واضطربت أعمق أعماقه وطغى وفاض من مقلتيَّ فاستندت إلى حديد الباب وأسبلت الدمع. نعم بكيت أسفًا؛ لأن جدتي لم يطُل بها العمر حتى تراني، كلا. ومما ضاعف أسفي أني أنا أيضًا لم يفسح الله في أجلي حتى كنت أراها، فماتت قبل أن يخطر لأبويَّ أن يجيئا بي ببضعة آلاف من السنين، كان من السهل أن تطوى ولم تكن الدنيا تخسر شيئًا لو أنها لم تكر عليها. بضعة آلاف فقط كان يمكن اختصارها أو اختزالها على نحوٍ ما، لتتمكن الجدة والحفيد من التعانق وشفاء غلة الشوق المتبادل! ولكن على المرء أن يحتمل متاعب الحياة وأن يتجلد على صروف الأيام. ولعل ما صارت إليه جدتي المسكينة المحرومة هو الخير، ولو أنها عاشت إلى اليوم ولم تمت، لما أتيحت لنا فرصة للخروج إلى الحياة، وفي هذا بعض العزاء لنا.

ورأيتني أتلفَّت — بقلبي فقط — وأنا داخل مكة كأنما أبحث عن بني مازن أهلي وعشيرتي، واشتقت أن أعانق القبيلة كلها بكل ما فيها حتى الخيام والجمال والخيل والسيوف والرماح، وأن أضمها إلى صدري وأن أريح رأسي على صدرها وأن أذرف دموع الفرح بلقائها بعد طول النوى وبُعد الشُّقَّة، وعجبت كيف لم يخرج منها لاستقبالي والترحيب بي، وساورتني المخاوف عليها، وأشفقت أن يكون ابن السعود قد رماها «بتصبيحة»! فإن قومي — عفا الله عنهم — من ذوي المروءات، ولست أعرفهم أطاقوا قط أن يدعوا مسافرًا مثقلًا بالأحمال رازحًا تحت الأعباء، وابن السعود يكره هذا التخفيف عن الناس، ويؤثر أن يدعهم ينوءون بما عليهم وما معهم، ولا يجيز هذا الضرب من التعاون.

وأقسمت — في سري — إذا كان «الإخوان»[1] قد «صبحوا» قومي، ليكونن لي معهم شأن آخر.

ولما صارت بيننا وبين مكة خطوات قال واحد: «ألا تفتحون النوافذ؟»

قلت: «لماذا؟»

[1] الإخوان لفظ يطلق على النجديين.

قال: «قد يكون هناك جند لتحيتكم فيحسن أن تبرزوا في التحية.»

فقلت وأنا أرتد إلى الوراء وقد أحسست أن وجهي صار كالجمرة وإن كانت المرآة التي أمام السائق لم ترني شيئًا، لأنها بعيدة عني ومنحرفة أيضا: «عفوًا يا سيدي. لا تخجلوا تواضعنا! أرجو. ألح ... اصرفوا الناس عنَّا ...»

وكنت أريد أن أقول كلامًا آخر ولكني نسيته لأن صيحة مزعجة انطلقت وسكت آذاننا على أثرها قعقعة سلاح، فخفت وسمعت أسناني تخبط وهي تصطدم. ثم ملكت نفسي وأسعفني الظلام فابتسمت لما علمت أن هذه تحية يتلقانا بها الجيش على باب مكة.

وانطلق البوق يرد الناس عن الطريق، ومضى السائق اللعين يخطف بسيارته كأنه يفر بها من الموت، ولا يمهلنا حتى نتأمل الناس المحتشدين على الجانبين والدكاكين المضاءة بمصابيح البترول — أو الزيت فما أدري — والطريق طويل يشق مكة من بابها إلى آخر الكعبة ومن ورائها إلى السوق، وقد قطعناه بالسيارة في سبع دقائق، ثم وقفت بنا أمام دار الضيافة على «المسعى بين الصفا والمروة» وأمام باب السلام، فنزلنا وأقبل علينا ناس كثيرون يُسلِّمون علينا، فقلت: هذه فرصة، ولعل بعض قومي بينهم أتوا مستخفين. فملت عليهم، أو على الأصح شببت إليهم وتعلقت بأعناقهم، طوقتهم بذراعي وساقي أيضًا — ذراعاي حول أعناقهم وساقاي حول خصورهم — وأهويت عليهم أقبِّلهم وألثِم أفواههم وخدودهم وأنوفهم وآذانهم ورءوسهم، وكان كل منهم يتلقى مظاهر شوقي بما تستحقه وتستوجبه من السرور والجلَد ثم يحطني على السلم.

وملنا إلى غرفة رحيبة نصفها ميضأة، والنصف الأخر تصعد إليه بدرجتين وهو مفروش ومُعَدٌّ للجلوس وفي وسطه مكتب عليه تليفون، فهممنا بالجلوس، فقيل بل توضَّئوا لتطوفوا وتسعَوْا وتتحللوا من الإحرام؛ فإن سمو الأمير ينتظركم. فتلفتُّ حولي ثم إلى الدرجتين ورحت أفكر في طريقة محترمة لهبوطهما فلم يفتح الله عليَّ بحيلة، وكان إخواني في خلال ذلك سبقوني إلى الوضوء فدنوت من حرف الدرجة، ورأيت عبدًا طويلًا فأشرت إليه فدنا مني، فانحنيت من مرقبي العالي كأني أريد أن أهمس في أذنه شيئًا ثم غافلته وتعلقت به ودُرت وتركت نفسي أنحدر على هذا العمود الآدمي إلى الأرض بسلام.

وقدم لي أحد العبيد «قبقابًا» فنظرت إليه ثم هززت رأسي وسألته: «ما هذا؟»

قال: «قبقاب للوضوء.»

قلت: «ولكن كيف ألبسه؟»

قال: «اخلع نعليك وأدخل هذا بين أصبعيك.»

و«هذا» عبارة عن أسطوانة دقيقة كمن الخشب المنجور عمودية على سطح القبقاب، يُدخلها المرء بين أصبعيه ثم يذهب يزحف أو يجر القبقاب على الأرض ولا يرفعه عنها لئلَّا تفلت الأسطوانة من بين الأصبعين؛ إذ لا سير من الجلد له يمسك ظهر الرِّجل، فقلت: بل الحفى خير من هذا. وقعدت أتوضأ.

وللحرم عدة أبواب، ينحدر منها المرء إلى صحن رحيب جدًّا يدور بالكعبة، كصحن الأزهر إلا أنه أوسع كثيرًا، وأرضه رمل حصى، ولكنه حول الكعبة مبلط، وكذلك ما بين الأبواب وهذا المطاف. وقد تسلَّمَنا شيخ المطوِّفين ومضى بنا إلى مقام إبراهيم — جدي أيضًا — عليه السلام ووقف بنا وصَفَّنا بين المقام وزمزم وقال: صلوا ركعتين. ففعلنا ثم نهضنا وبدأ الطواف، وشرع في العمل، وكنت أتمنى لو تريَّث قليلًا — دقائقَ فقط — لأنظر إلى الكعبة في الليل على ضوء الكهرباء، ولكنه لم يعبأ بذلك وطوى ذراعيه إلى صدره كأنه يتهيأ للجري، وتلك هي الهرولة، ومضى يدعو ونحن نقول وراءه، وكنت وأنا أهرول موزَّع النفْس، عيني إلى الكعبة وإلى الطائفين مثلنا وهم جماعات جماعات وكل جماعة تهرول وراء مطوِّفها، وأذني إلى هذا الشيخ المطوف الذي كان يأبى إلا أن ينطق عبارات الدعاء بأقصى ما يستطيع من البطء والوضوح وبأكثر ما يسعه من اللحن أيضًا، كأنما حسِبَنَا بعض الجاويين أو الهنود، ولم يدرِ — سامحه الله — أنَّا ... ولكن المفاخرة لا تليق. غير أن لحنه كان يمزق أذني ويفسد عليَّ تبتُّلي في الطواف، وقد أذكرني جماعة «التراجمة» في مصر الذين يحشون رءوس السائحين وزائري الآثار المصرية بالأغاليط التاريخية والسخافات الفاضحة، وكما عالت مصر مشكل التراجمة والأدِلَّاء بإنشاء مدرسة لهم، كذلك أنشأت لهم الحكومة السعودية معهدًا لتخريج المطوِّفين، وحسنًا فعلت؛ فإن من رأينا من المطوفين أعاجم.

ووَدِدْتُ لو أتيح لي أن أتمهل عند الحجر الأسود فإنه عجيب، ولكن الزحام كان شديدًا، ولسنا بأحق من سوانا بذاك، وهو أسود فاحم ووضَّاء مشرق، وحوله إطار بيضاوي من الفضة، والمرء يحتاج حين يُقبِّله أن يُدخل وجهه فيه لأنه — أي الحجر — مجوف. وأحسب أن ألسنة مئات الملايين من الخلق قد لحسته وأكلته، أو لا أدري، لعله كان هكذا أبدًا، وقد قلت وأنا أفعل ما فعلت الملايين قبلي وما ستفعل الملايين بعدي، كما قال عمر بن الخطاب: «اللهم أني أعلم أن هذا الحجر لا يضر ولا ينفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبله ما فعلت.»

والركن اليماني حجر آخر في زاوية كزاوية الحجر الأسود، ولكنه أشبه بحجر الصوان أو الجرانيت سوى أنه إلى الخضرة أميل، ومن عجيب أمره أنه يبدو للطائف على بعد متر أو اثنين كأنه من المعدن أو الفضة. وقد نازعتني نفسي مرارًا أن أترك الصف وأتخلَّى عن المطوف وأدنو منه لأتأمله، فلما أَذِن لنا المطوف أن نفعل في الطواف السابع كنت أسبَقَ الإخوان إليه.

والحق أقول إني أحس أن طوافي هذا لم يُحسب لي في عداد الحسنات التي يسجلها أحد الملَكين، فقد أفسده المطوِّف بلحنه كما أسلفت القول في ذلك، وكنت أنا من ناحية أخرى أرد عيني بجهد واضح عن التطلُّع والنظر فيما حولي، وهكذا خرج كل من إخواني بقصر أو قصور في الجنة وخرجت أنا كما دخلت وليس لي سوى مشملين على بدني احتفظت بهما للذكرى. فلا بد إذن من عمرة أخرى أو حجة أعوِّض بها ما فاتني.

وقد اشتهيت وأنا ألمس الحجر الأسود أن أقتطع منه قطعة أحملها معي وأعود بها، فقد خيل إليَّ أنه عنبر متجمد لا حجر، وجمحت بي هذه الشهوة حتى لأنستني أن ليس على بدني سوى مشامل الإحرام فذهبت أتحسس لعل معي مبراة أو شيئًا يصلح للقطع، ثم أفقت والتفتُّ وإذا بأحد أصحابي يمد يده بالمنديل يمسح به الحجر، فعجبت من أين جاء بالمنديل وكيف حمله وأين خبأه، وقد كانت يداه فارغتين، وتأملته وإذا بالخبيث يلبس تحت المشامل ثيابه الصوفية.

وقد قلت له لما عدنا إلى دار الضيافة: «هات جنيهًا يا سيدي. جنيهًا ذهبًا.»

فحملق في وجهي وقال: «لماذا؟»

قلت: «جنيهًا نشتري به ذا القرنين.»

قال: «ذا القرنين؟ لست أفهم.»

قلت: «خروفًا ذا قرنين طويلين متلويين نطلقه عليك فينطحك بهما ثم نذبحه ونطعم الفقراء لحمه.»

قال: «ولكن لماذا؟»

قلت: «جزاء وفاقًا بما زورت على الله يا خبيث! أتلبس ثياب الصوف تحت المشامل مغالطًا ربك في قلب الحرم المقدس، ثم تتجاهل وتحاول أن تهرب من الفدية؟! هاتِ لنا ذا القرنين عجِّل!»

ولكنه لم يزد على أن قال: «أوه!» وضحك.

وملنا إلى زمزم وهي بئر في الحرم عليها بناء له باب، فسَقَوْنا منها ماءً غير سائغ، ودخلنا البناء لنغسل رءوسنا ولا أدري لماذا، واقترح بعضهم علينا أن نستحم بمائها

فلم نر لهذا موجبًا؛ فإن ماءها بارد وجو مكة في الليل غير دافئ، وعلى فَمِ البئر سور من الحديد عالٍ أقامته الحكومة لأن بعض الحجاج يحلو لهم أن يلقوا بأنفسهم في البئر ليغرقوا ويموتوا شهداء على ظنهم ويذهبوا من قاعها إلى الجنة مباشرة بأخصر طريق.

وخرجنا لنسعى بين الصفا والمروة، وهو طريق بينهما مهدته الحكومة السعودية وعبَّدته ورصفته تسهيلًا للسعي، وطوله نحو كيلو أو أقل، ولا بد من قطعه سبع مرات، فلما شرعنا نسعى جاءنا البشير من قبل الأمير أن في وسعكم أن تسعوا بالسيارة إذا كان التعب قد أدرككم. فرفعت يدي بالدعاء لسموه وابتهلت إلى الله أن يطيل عمره وأن يلهمه دائمًا — على الأقل ونحن في الحجاز — مثل هذا التيسير على الناس، وعدوت إلى السيارة فصاح بي الدليل الذي يسعى بنا أو معنا على الأصح: «إلى أين؟»

قلت: «إلى السيارة. يا صابر تعالَ بسرعة.»

ولكن صابرًا سائقنا كان ملكيًّا أكثر من الملك؛ فقد أبى لنا أن نسعى بالسيارة وقال إن هذا لا يجوز، وإن المسعى غاصٌّ بالساعين وبالنساء والرجال والأطفال؛ فليس ما تبغون من الإنسانية في شيء. فخجلنا وتركنا السيارة بعد أن استوينا فيها. وأصارح القارئ بأني لعنت «صابرًا» هذا في سري، وإن كنت لم يسعني إلا احترامه، وهو شاب في العشرين من عمره حدَّثنا في الطريق أنه مصري الأصل وأن لأسرته نحو مائة عام في الحجاز، وقد كان على أيام الحسين أحد رجال فرقة الموسيقى الحربية، ولكنه الآن سائق سيارة في شركة القناعة، وأبرز صفات هذا الشاب الجرأة والاستقلال مع الأدب الوافر، وحديثه ممتع وفي لغته فصاحة وفي صوته عذوبة وفي عينيه حلاوة، ولو كان الغناء مباحًا لكان الأرجح أن نسمع منه شدوًا مطربًا، وقد كان يخاطب كبراء الحجاز في جدة ومكة وفي الطريق بينهما مخاطبة الند للند، ويشعل أمامهم سيجارته ويذهب يدخن ويناقشهم ويحاجُّهم ويعترض على بعض ما يقولون ويدلي بالصواب في رأيه كأنه ند لهم، وكانوا هم يتقبَّلون منه ذلك ولا يرون فيه شذوذًا، ولا يبدو عليهم أثر الدهشة أو الامتعاض؛ فالأمر إذن مألوف.

ولكنه حنبلي مستبد، أبى لنا أن نسعى بالسيارة، فلما أصر رسل الأمير وألحوا، ترك السيارة وأبى أن يسوقها فتولاها غيره، وأحسب صابرًا قد حقدها علينا وأَسَرَّها لنا؛ فقد تخلى عنَّا بعد أن عدنا إلى جدة، وعلى أن هناك حاقدًا غيره هو زكي باشا؛ سعى على قدميه مع بقية إخواننا وسعينا نحن بالسيارة فجعل بعدها يشنِّع علينا ويشهِّر بنا — مازحًا — في كل خطبة له، بل جعل يتَّخذ من ذلك دليلًا على أن الإسلام لا ينافي التقدم

ومظاهر المدنية الحديثة، وما كان هذا الدليل ينقصه ولكنها الرغبة في التشهير بضعفنا وإعيائنا والمباهاة بقوته وجلَده على الرغم من سنه.

وقصصنا شعرات من رءوسنا ولبسنا ثيابنا، أما أنا فأخطأت وقصصت الشعرات بعد ارتداء الثياب ولم أتنبَّه إلى خطئي إلا بعد أن صرت في نصف ثيابي، فكتمت الأمر، وفي مرجوِّي ألَّا يفطن إليه الملَك الموكل بي، ولا أدري أيهما ولكن هذا الاختلاف على الاختصاص شأن يعني الملكين وحدهما ولا دخل لي فيه، ولست مكلفًا أن أفضه، غير أن أحد زملائي أبى إلا أن يلاحظ ذلك ويرفع به عقيرته ويصبح مسجلًا عليَّ هذه المخالفة، فأحسست بالملكين جميعًا يتحركان وينتزعان الريش من جناحيهما لتدوين هذه الملاحظة، فكظمت غيظي وقلت وأنا أتكلف الابتسام: «يا سيدي إن العمرة فسدت كلها من قبل ذلك، وقد اعتزمت أن أعوض ما فاتني في وقت آخر.»

ثم التفتُّ إلى يساري وقلت بصوت عالٍ لكاتب السيئات: «وعلى أن الذنب في خطئي راجع لغيري: إلى المطوِّف أولًا ثم إليكم، فقد كان واجبًا على العارف يُعلِم الجاهل.»

واسترحت بعد أن أدليت بحجتي وشرحت عذري وحركت كتفي اليمنى تنبيهًا لمسجل الحسنات.

وقَصْرُ الملك في طرف من المدينة، وهو طويل عريض، مبني بالآجُر، وله جناح جديد هو الذي دخلناه، وفي فنائه حديقة صغيرة، وقد استقبلَنا الجيش على الباب وحيَّانا لا أدري كيف؛ فلست إخصائيًّا في حركاته، وصعدنا إلى حجرة عظيمة، طولُها — على ما أقدِّر — لا أقل من خمسة عشر مترًا في نحو عشرة أمتار، مفروشة ببساط من المخمل، وعلى مدارها مقاعد عالية شبيهة «بالكنب» المصري، ومكسوة «باليوت» والمخمل، وكذلك «براقع» الستائر وفي وسطها صف من العمد يحمل سقفها، والجدران مكلَّسة، وكان الأمير جالسًا في الصدر فنهض لاستقبالنا، فسلمنا وجلسنا وجاءت القهوة، ومن بعدها الشاهي أو الشاي.

والأمير في الرابعة والعشرين من عمره، وهو نائب الملك في الحجاز، كما أن أخاه الأكبر الأمير سعود — ولي العهد — نائب الملك في نجد، وثيابه ثوب أبيض «كالجلابية» المصرية فوقها سترة «جاكتة» رمادية عليها العباءة السوداء وهي رقيقة النسج شفافة، وعلى رأسه «الحرام» والعقال. وهو قسيم وسيم حلو النظرة عذب الابتسامة وديع، ولكن نظرته حين يصمت تبدو حزينة، وفي تقوُّس شفتيه وذقنه مرارة لا تخلو من تصميم،

أما القوة فآيتها أنفه الأقنى وجبينه العريض. وأغرب ما في وجهه اجتماع اللِّين والصلابة والرقة والقوة، واختلاط ذلك كله وتسرُّب بعضه في بعض، وهو أنطق وجه رأيته بجميع هذه المعاني، غير أن المرء لا يسعه إلا أن يشعر أن هناك زاوية وراء هذا المحيا الناطق يُغيِّب فيها الأمير خواطره وآراءه الخاصة ويحجبها عن العيون الفاحصة. وقد كنت أتوقع — قياسًا على ما شهدت في جدة — أن يكون قصر الملك أفخم رياشًا وأفخر أثاثًا، فإذا به يمتاز بالنظافة التامة والبساطة الكاملة، أما الأبهة فقد تركها لمن شاء من شعبه.

وغرفة الطعام كأبسط ما تكون: حجرة مستطيلة تَسَعُ نحو مائة، في وسطها مائدة طويلة ساذجة صُفَّتْ إليها الكراسي الخيزران، وأدوات الأكل تامة، والآنية كلها من طراز واحد، والملاعق والسكاكين وما إليها من الفضة، وقد تناولنا الطعام على الطريقة العربية وقضينا فيه أكثر من ساعة نتفكه عليه بالحديث، ولم يكن ثَمَّ نظام معين أو ترتيب مُعَدٌّ للجلوس بل قعد من شاء حيث شاء، وقد احتفظت بقائمة الألوان، وهي مطبوعة على الآلة الكاتبة وفي نشرها دفع لكثير من الأوهام الصبيانية.

- شوربة بالبزاليه
- دجاج رستو بالبوريه
- بامية
- حلا كريمة بالكاكاو
- بريك
- دجاج بالكري
- باذنجان أسود بالزيت
- حلا كيك بالمشمش
- رز بالشعرية
- فاكهة

وقد علمنا من سموه أن الخضر تزرع في وادي فاطمة — وسيجيء ذكره — من مثل البامية والملوخية والباذنجان والخرشوف وما إلى ذلك، وفي الوادي فواكه كالموز والليمون الحلو فضلًا عن الملح، وقد كان سموه يذكر ذلك بلهجة المباهاة، ولفتنا بصفة خاصة إلى الباذنجان، ولكني لم أستمرئه لأنه غليظ سميك الجلد غير سائغ الطعم.

ولا أطيل على القارئ، ذهبنا بعد الطعام إلى حجرة أخرى للجلوس، مؤثَّثة على طراز حجرة الاستقبال الكبرى، ولكني استغربت أن أرى فيها دولابًا مما يُتَّخَذ للثياب،

وأديرت علينا القهوة وأكواب الشاي، واشتهينا أن ندخن، ولكن التأدُّب منعنا، والناس لا يدخِّنون في حضرة الأمير أو كبار النجديين لأن الدخان مكروه عندهم، وكان الليل قد انتصف فاستأذنَّا في الانصراف، ولو أنَّا كنَّا انتظرنا حتى يصرفنا هو لبِتنا إلى الصباح، فما مما يليق عندهم أن يصرف الرجل ضيفه، ولم نكد ننطلق بالسيارة حتى أشعلنا السجاير.

ومن غريب عاداتهم أن الضيف لا ينام على فراش اتخذه واحد قبله، فإذا ذهب ضيف فُكَّت المراتب والوسائد والأغطية وأعيد تنجيدها لمن عسى أن ينزل من الضيوف، وقد لفتنا إلى هذا أنَّا رأينا كل ما على الأسِرَّة جديدًا لا شك في ذلك، فسألنا فعلمنا ما رويتُ، وقيل لنا: سترون المنجد غدًا يدخل وأنتم خارجون. وأقسم ما نمت على فراش أوثر من هذا ولا أمتع، ولقد راهنت واحدًا على أنه محشو بالريش فخسرت الرهان وتبين أنه قطن جيد مندوف لا أكثر.

ولما فتحت الحقيبة لأخرج ثياب النوم وجدت أني نسيتها في جدة، فقلت: لا بأس، قليل من التقشف ينفع المترف، وبحسبي بعض ما عليَّ من الثياب.

وأخذني النوم وأنا أفكر في الأمير وفي انتظاره إيانا في قصر جلالة الملك ثلاث ساعات من غير أن يمَل أو يتأفَّف، بل من غير أن نشعر نحن بالحاجة إلى الاعتذار له.

لا أدري ماذا أصابني في مكة، فقد كنت أحس أن عفريتًا من الجن ركبني، وبلغ من شدة إلحاح هذا الشعور أني أراني أقف في الطريق وأثبت قدمي في الأرض مباعِدًا بينهما وأرفع إحدى ذراعيَّ إلى ما وراء كتفي كمن يريد أن يسند شيئًا ثم أرفع كتفي وأحطهما كأني أريد أن أرد ما فوقهما إلى الاتزان والاعتدال كما يفعل من يحمل طفلًا أو غير ذلك، فذكرت قصة السندباد البحري الذي ركبه ما ركبني، فلم يزل مستقرًّا على كتفيه حتى سقاه السندباد البحري خمرًا أدارت رأسه وراخت أعصابه وفككت أوصاله فطرحه عنه. ولقد تمنيت لو أتيح لي أن أسقي عفريتي كأسًا من الوسكي أو حتى من الزيت لأتخلص من ثقل هذا الكابوس؛ ولكنا كُنَّا في مكة ولا سبيل فيها إلى شرابٍ غير ماء زمزم، وهو ماء قد يَغشى النَّفْسَ ولكنه لا يُسكِر.

على أني لم أقطع الأمل، وكيف أقطعه وهذا العفريت على كتفي قد لصق بهما وصار كأنه امتداد لهما؟ وكيف أطرح حمله الثقيل عن عاتقي بغير الوسكي أضحك به عليه وأزلزل كتفي تحته؟ ففحصت الوجوه التي حولي وتفرست فيها مليًّا ثم اخترت

وجهًا كالمنتفخ فيه عينان باطن أجفانهما المحمر كأنه مقلوب، وقلت له: «يا صاحبي أني أشيم الخير من وجنتيك، وآنس الرشد من عينيك ...»

فقاطعني: «عفوًا سيدي ...»

قلت: «لا داعي لهذا التواضع؛ فإن الأمر بَيِّنٌ ولا يشك في ذلك إلا أعمى، فهل لك في معاونتي؟»

ففرك كفيه جذلًا وتهدَّلت شفتاه الغليظتان وانشقتا عن أسنان طويلة سوداء، وقال وهو يحني رأسه قليلًا: «مرني يا سيدي نحن هنا خدامكم.»

فوضعت كفي على كتفه وقلت: «أستغفر الله. إن الأمر بسيط على ما أظن لا يحتاج إلا إلى خادم واحد يعرف كيف يصرف العفاريت عن الناس.»

فحملق في وجهي كأنه لا يفهم فمضيت في كلامي وقلت: «إن لنا في مصر طريقة مجربة نصرف بها العفاريت إذا ركبت الناس، وقد أخذناها عن السندباد البحري، أظنك تعرفه؟ لا بد أنك سمعت به، إنه ذلك التاجر البغدادي الشهير ... آه لا تعرفه؟ عجيب هذا! إذن ما طريقتكم أنتم؟»

فتلعثم وقال: «طريقتنا؟ طريقتنا؟ هل يريد السيد المازني أن يقول إنه يعتقد أن العفاريت تركب الناس؟»

قلت بضجر: «طبعًا. طبعًا إن العفاريت مذكورة في القرآن، أفلا تؤمن بالقرآن؟ على أن المسألة لا تحتمل الخلاف؛ فإن الواقع من الأمر أن على كتفي الآن عفريتًا وأنا أريد أن أصرفه فما أستطيع أن أظل أحتمله في غُدُوِّي ورواحي هكذا! ثم إني أريد أن أدخل الكعبة غدًا فكيف أدخلها بعفريت؟ ألم تفهم؟ إن العفريت يود أن يغتنم هذه الفرصة — فرصة وجودنا وكوننا ضيوف الأمير والسماح لنا، بدخول الكعبة بغير تفتيش — فيدخل معي، أعني مستخفيًا على كتفيَّ، وهذا لا يجوز، ولست أرى أن أساعده على ذلك. أفهمت الآن؟»

فضحك الخنزير؛ أعني الرجل الذي توسمت منه الخير، وظنني أمزح، وقال: «يا رجل، والله لقد حسبتك جادًّا.»

فغاظني ذلك ولكني كظمت غيظي وقلت بابتسامة متكلفة: «لقد أخطأت، اسمع: قد يكون عفريتي مؤمنًا أو لا يكون لا أدري؛ لذلك أريد أن أصرفه، فهل لك أن تعينني؟ أجب بلا أو نعم. وعسى أن لا تخيِّب أملي فيك.»

فعاد اللعين يضحك، وأحسبه أَحَب أن يجاريني فيما ظنه مزاحًا مني فقال: «وما هي طريقة السندكار البحري التي تتبعونها في مصر؟»

فتشجعت وقلت بلهجة الجِدِّ المُرِّ: «نسقيه كأسًا أو اثنتين فيسكر فنلقيه ونستريح منه. طريقة عملية، بل هي أضمن طريقة لأن قوة الإسكار في الخمر حقيقة علمية؛ ولهذا نهى الشرع عنها.»

فأرسلها ضحكة مجلجلة تجاوبت بأصدائها الحجرة فأسرعت فوضعت يدي على فمه وبودي لو أكتم أنفاسه، فقال بعد أن تخلص مني: «واللهِ يا أهل مصر إنكم لظرفاء.»

فقلت «العفو، هذا بعض ما عندكم، على أن في الوقت متسعًا لتقارض الثناء فهاتِ لعفريتي كأسًا.»

فابتسم وقال: «كيف تسقيه وأنت لا تراه؟»

فقلت: «إني أعرف الطريق إلى فمه؛ فإن بيننا الآن اتصالًا لا تدركه أنت. فهاتها أولًا والباقي عليَّ.»

ولكنه لم يفعل؛ لأنه ظن لبلاهته أني أستدرجه إلى الاعتراف بأن في مكة خمرًا، وقد رأيته بعد ذلك فعجبت أين غابت سمات الخير وكيف استسرَّت مخايل الرشد التي كنت أجتليها في وجهه؟

وقد سلط زكي باشا نفسه علينا بعد ذلك في الفجر أو قبيله بدقائق وكنا نيامًا، كما لا أحتاج أن أقول، وكان عفريتي قد انصرف عني في الهزيع الأخير من الليل، انصرف على يأس كبير، وكان في حجرتنا ستة أَسِرَّةٍ على صفين، والباقون منا في حجرات أخرى، وكان سريري بجانب النافذة بحيث يسعني بأيسر مجهود أن أطل من الشباك على الحرم، واتفق أني كنت أحلم بالعفاريت وأراني كأني أسقيها خمرًا وأعابثها وهي تترنح فأدغدغ لها خصورها تارة، وأشعل السجاير من عيونها طورًا، وأجرها من ذيولها وأديرها حولي، وهكذا وإذا بصوت ممدود مزعج يوقظني من سباتي ويبدد أحلامي اللذيذة ويطير خيالاتي الممتعة، ففتحت عيني متضجرًا، فإذا شبح ضخم يبدو من وراء الكلة فقلت لنفسي: «يا للفضيحة! أيسطى علينا في دار الضيافة؟» وابتسمت مطمئنًّا فقد تركنا ما معنا من النقود في جدة، وتناومت لأرى آخر هذه الحكاية، فانبعث من الشبح صوت غليظ مديد فرفعت رأسي مقدار قيراط فإذا به زكي باشا يبدو في عباءته شيئًا عظيمًا جدًّا، ولم يعجبني أن يوقظني في فحمة الليل فحوَّلت وجهي عنه فمد يده وصاح: «قم!»

وأشرت إليه أن لا، فعاد يصيح: «أقول لك قم.»

فصحت بأعلى صوت أستطيعه: «وأنا أقول لك لا، فاذهب عني.»

فقال: «قم لنصلي الفجر في الحرم، منظر لذيذ لا يصح أن يفوتك.»

فقلت: «إذا كان المنظر هو كل ما نبغي، فاذهبوا أنتم فإن منظركم من النافذة سيكون أمتع لي، ويمكنكم أن تضعوا علامة على ظهوركم لأعرفكم بها.»

وأحسبه لم يسمع أو لم يحفل ما أقول فقد مَدَّ يده من تحت الكلة وراح يشد اللحاف ويعريني وهو يقول: «قم. قم. قم.»

فصحت به وأنا أجذب اللحاف لأتغطى: «لا. لا. لا.»

فمضى عني إلى الباقين واحدًا واحدًا ونسي أنه أيقظهم جميعًا حين أيقظني.

وتوضأنا ودخلنا الحرم، وفُتِحَتْ لنا الكعبة وبابُها عالٍ والصعود إليه بسلم خشبي متحرك، يوضع عند الحاجة ويُرفَع بعد ذلك، وهو من النوع الذي كان يُتَّخَذ في المساجد المصرية ليرقاه الخادم ليبلغ الأسرجة فيضيئها أو ينظفها، وذلك قبل اتخاذ الكهرباء. وتناول يدي سادن الكعبة وأنا على آخر درجة فكدت أقع وأهوي؛ ذلك أني كنت أصعد على يدي ورجلي كما تفعل القردة، ولما استويت واقفًا طوقني بذراعيه وغمر وجهي بلحيته البيضاء الطويلة وكنت أنا أيضًا قد أرخيت لحيتي، وكانت بيضاء كذلك، ولكنها قصيرة فأسفت لأني لم أرسلها قبل رحلة الحجاز ببضعة شهور، إذن لاستطعت أن أقابل سادن الكعبة مقابلة الند للند، وأن أشُكَّه بلحيتي كما شكني بلحيته، على أن لحيتي على قصرها أفادتني في الحجاز وبوأتني مقامًا ملحوظًا ومركزًا ممتازًا، وأكسبتني وقارًا ليس لي، وجعلت لي سمتًا وأبهة لا عهد لي بهما.

وكان الناس يحفون بي ويهرعون إليَّ ويكبرونني من أجلها، ويجثون على يدي فأجذبها وأقول: «أستغفر الله. تؤ. تؤ. تؤ. بارك الله فيكم.» ويعنون بي ويمنعونني أن أمشي إلى حيث السيارة لأن من كان في مثل سني، وكانت له مثل لحيتي البيضاء لا يليق أن يجشم مشقة، أو يكلف تعبًا. فلو أن الغيد في الحجاز سافرات لبكيت ولقلت متوجعًا كما قال ابن الرومي:

أصبحت شيئًا له سمت وأبهة … يدعوني الغيد عمًّا تارة وأبَا

ولكنهن هناك محجبات؛ فلا أسف ولا بكاء. وإني لحقيق بحمد الله وشكره على أن بيَّض وجهي ولم يُسَوِّدْه كوجوه زملائي؛ أعني الذين كانت لحاهم سوداء، وقد أسِفت وأنا هناك على عمري الذي أضعته في الاشتغال بالأدب، وأنفقته في هذا العبث الذي لا يُجدي؛ فإن لحية واحدة بيضاء ترجَح هناك بمائة كتاب من خير ما أنتجت العقول،

ولو كنت أعرف هذا من قبلُ لجعلت وُكدِي لا الكتابة والتأليف، كلا؛ فإن هذا كله عبث بل معالجة لحيتي لتشيب.

ومشى بي السادن خطوات ثم وقف بي ورفع يديه، وراح يدعو وأنا وراءه، وعيني إلى لحيته النشيطة التي كانت تتحرك مع الكلام، وأقسم لقد نفستها عليه؛ حتى لقد خطر لي أن أنزعها عن وجهه وألبسها بدلًا منه.

وقال بعد أن فرغ: «صلِّ هنا ركعتين.»

قلت: «أين القبلة؟»

قال: «لا قِبلة هنا، كل مكان قِبلة.»

قلت: «فهل أصلي دائرًا حول نفسي كالكرة الأرضية؟ إن هذا صعب فأرني كيف أصنع.»

فلم يفهم وقال: «نصلي ركعتين في كل اتجاه.»

فاتجه لي رأيان أردت أن أستفتي فيهما.

ولكني لم أجد من يفتي، أو على الأصح لم أتوسم في وجوه من حولي قدرة على الإفتاء، فأطعت وصليت.

والكعبة من الداخل حجرة واسعة خالية يحمل سقفها عُمُدٌ غليظة من خشب زكي الرائحة، وهي مكسوَّة. ولكن الجزء الأسفل من جدرانها مُعَرًّى، وعليه ألواح من الرخام حُفِرَتْ فيها كتابات بخطوط شتى ترجع إلى عصور مختلفة تذكُر أسماء من أصلحوها أو رمَّموها أو زادوا عليها شيئًا أو فعلوا غير ذلك، وبعض الكتابة كالطلاسم لا يُقرَأ. وقد تعقبني رجل يشرح ما على الجدران، وكان من الجلي أن شرحه خطأ وأن الاختراع فيه أكثر من العلم، فسألته وأشرت إلى لوح رديء الخط: «ما هذا؟»

فقال: «هذا يا سيدي ... هذا ... أظنه خط ... أ ... أ.»

فقلت أستعجله: «خط من؟»

فدنا من اللوح وتأمله من قريب ثم رفع رأسه وقال: «نعم. المنتصر بالله المستنصر ... إيه؟ نعم هو بعينه لقد عرفته.»

فقلت: «آه عرفت خطه؟»

قال: «نعم.»

قلت: «إنه رديء.»

قال: «نعم غير واضح.»

قلت: «هل كان صديقك؟»

قال: «صديقي؟»

قلت: «لعله كان قريبك؟»

فحملق في وجهي ثم قال: «إنه قديم جدًّا.»

فسألته: «الخط أم الرجل؟»

فقال: «كلاهما.»

فقلت: «شيء جميل! وأين هو الآن؟»

فقال بلهجة المستغرب أو الذي بدأ يشك في عقل محدثه: «أين هو الآن؟ لقد مات منذ مئات من السنين.»

فسألته: «وهل كتب هذا بعد أن مات؟»

فجذبني أحد الزملاء فلم ألتفت إليه وقلت لدليلي: «أريد أن أبكي.»

وأخرجت المنديل ورفعته إلى عيني فأقبل عليَّ الرجل يسألني بلهفة: «ما السبب يا سيدي؟ لماذا البكاء؟»

فأجهشت وقلت بصوت متهدج من فرط التأثر: «أسفًا على المستنصر!»

فجعل يطيب خاطري ويؤكد لي أنه في وديعة الله وجنته. فقلت والدموع تنهمر من عيني: «ولكنه مسكين، فقد عمره كله.»

فأخذ يشكر لي عواطفي الرقيقة وشعوري الطيب فتسايلت عَبراتي على خدي وأنا أقول: «لو كان قد أدرك لما خسر عمره كله هكذا. مسكين!»

وانتحبت. فشدني زميلي وقال: «تعال يا شيخ!»

ولما عدت إلى مصر. أقبلت أمي عليَّ تسألني فقصصت عليها ما رأيت، ووصلت في وصفي إلى الكعبة فقالت: «هل دخلتها؟»

فقلت: «بلى، دخلناها بصفة خاصة.»

فقالت: «طوبى لك! لا تخبر أحدًا بما رأيت فيها، احذر.»

فسألتها عن السبب فقالت: «إن من يرى الكعبة من الداخل لا يقص على غيره ما يرى.»

قلت: «ولكنها خالية ولا شيء فيها. كانت أشبه بمخزن للأوثان في الجاهلية فأخلاها منها النبي عليه الصلاة والسلام.»

فقالت: «أيوه! خليك على كده. كل من سألك عنها تقول له لم أرَ شيئًا.»

فقلت: «ولكنها حقيقة خالية.»

قالت: «تمام مضبوط. بارك الله فيك.»

فقلت: «إني لا أكذب ولا أدعي: هي حقيقة كما أقول خالية.»

فقالت: «أيوه! تمام. أهو كده. الله يزيدك عقلًا.»

فأمسكت، ولم أدلي حيلة، وها أنا ذا أقول للقراء إن الكعبة لا شيء فيها فليصدقوا، وليكونوا كأمي، وليدعوا لي أو فليضنوا عليَّ بالدعاء، كما يشاءون.

وقد كانت مصر ترسل إلى الكعبة في كل عام كسوة جميلة دقيقة الصنع، فكفت عن ذلك فخسرت مركزها الديني الممتاز وثناء العالم الإسلامي عليها وحمده لها وإعجابه بصناعتها، وتبطَّل من جراء ذلك صُنَّاعُ الكسوة المصريون الذين ورثوا هذا الفن عن آبائهم وانقطعوا له، وأنشأت الحكومة السعودية دارًا لصنع الكسوة جلبت لها الأساتذة من الهند ليتولَّوْا ذلك وليعلموا أبناء الحجاز. وقد زرنا هذه الدار ورأينا أنوالها ونماذج مما تُخرج من الحرائر الموشَّاة والمطرَّزة بالقصب والفضة، ومن السجاجيد وما إليها، وهكذا أفاد الحجاز صناعة جديدة وخسرت مصر صناعتها القديمة البديعة، وأصيب عمالها بالفاقة.

ومن الممكن أن أقول — ومن الممكن أن يصدق القارئ — إن لحيتي طالت في خمس دقائق أضعاف ما تطول عادة في خمسة أيام، وإني لولا سوء الحظ لخرجت من الحرم صباح ذلك اليوم بلحية جليلة طولها على الأقل شبر. وسأروي للقارئ ما حدث، وأنا على يقين من أن مروءته ستدفعه إلى مشاطرتي ذلك الغم الذي انتابني لَمَّا أفلتت من يدي تلك الفرصة الفضية.

وشرح ذلك أننا خرجنا من الكعبة أو نزلنا عل الأصح، ثم قعدنا بين الصفوف عند باب الصفا ننتظر مقدم الأمير لزيارة الكعبة وسماع الدعاء — على بابها — لجلالة والده بطول العمر ودوام النصر والتأييد وبأشياء أخرى كثيرة نسيتها الآن وأذهلني عنها ما وقع لي، وكان الجيش صفين في الطريق من دار الحكومة إلى الحرم، وتلاميذ المدارس صفوفًا في فنائه، وقيل: جاء الأمير. فنهضوا بنا إلى الباب، وأقبل سُمُوُّه وبين يديه وأمامه وعلى يمينه ويساره حاشيته وعبيده في ثيابهم المزركشة وفي أيديهم المباخر، فدفعونا إليه وفرَّقوا بنا الخلق إلى صفه فسِرْنا في موكبه ومنَّا من استطاع أن يكون إلى جانبه،

وآخرون ردهم الزحام وراءه، حتى بلغنا الكعبة ووقفنا أمام بابها، فأَجَلْتُ عيني في هذا الحشد الهائل وأنا أتصبر على ما أحسه من الضغط الذي كاد يقصف لي ضلوعي، فرأيت الشفاه تلعب، فخفت أن يرى أحد شفتيَّ ساكنتين لا تضطربان بشيء، فقلت أحركهما بالفاتحة لعل الله ينقذني ببركتها من الأزم الذي أنا فيه. وأشهد أنها كانت أشد الفواتح التي قرأتها في حياتي بركة؛ ذلك أني ما كدت أتلو منها آية حتى ارتفع صوت بدعاء، ثم رأيت شابًّا — أو أنا أظنه ذلك — يرمي إلى الداعي بعباءة رقيقة النسج جميلة، فقلت لنفسي وأنا أحسد الداعي: والله إني لأحسن أن أدعو بخير من هذا وبأجدى منه على الأمير، ثم إني أرى دعائي مستجابًا أيضًا.

ولم أستطع أن أسترسل في هذه الخواطر؛ فقد قطعها عليَّ أن سادن الكعبة — وكان واقفًا في حاشيته، أو لعلهم أبناؤه وأحفاده في باب الكعبة، فوقنا — تقدم خطوة وبسط كفيه وانطلق هو أيضًا يدعو، فقلت لنفسي: سيجيء دوري إذن، فصبرًا يا مازني، وعسى أن يكون مع الشاب الكفاية من العباءات. وقارب الشيخ السادن ختام الدعاء فزل لسانه — والمرء، كما تعلم، بأصغريه: قلبه ولسانه لا بلحيته وقوامه — فدعا بطول النصر والتأييد، ولكن … للحكومة العثمانية!

فصحت: «يا خبر أسود!»

ولم أملك نفسي فقرصت ذراع جاري وأنا أظنه زميلًا لي، وأدرت إليه وجهي متوقعًا أن أقرأ في وجهه تأييد صيحتي فراعني:

أولًا: أنه لم يكن زميلًا لي ولا رجلًا أعرفه أو أحب أن أعرفه.

ثانيًا: أنه كان ينظر إليَّ شزرًا ووجهه من التقطيب كالإسفنجة.

ثالثًا: أنه كان يعري ذراعه ويفحصه جيدًا، استعدادًا لملاكمتي كما توهمت، فخطوت إلى الأمام وتسللت بين الأرجل حتى حاذيت الأمير، ولا أكتم القارئ أني خفت؛ فقد أيقنت أن قرصتي كانت أوجع لهذا الجار من الدعاء للحكومة العثمانية، وأنا — كما لا يعلم القارئ وما يمكن أن يعلم بالتجربة — ماهر في القرص، ومزيتي أني أتناول «خيطًا» من الجلد بين لحم أصبعيَّ وأفركه بهما لا بأظافري كما يفعل الأغرار والبلهاء، فيكون لذلك كَيٌّ وشَيٌّ ولذع كلذع النار، فهذه فائدة خرج بها القراء من حيث لا يحتسبون.

وأيقنت وأنا واقف أن سادن الكعبة سيطير رأسه عن بدنه بضربة سيف، وما على الأمير إلا أن يغمز بعينه واحدًا من عبيده أو يومئ له بأصبع فإذا الرأس يتدحرج على السلم

ويهوي عند أقدامنا، ولم تخالجني ذرة من الشك في أن هذا آخر عمر الرجل، ونسيت أن الحرم كل من فيه وما فيه آمِن، وقلت لنفسي: ما دام أن الرجل مقتول لا محالة، فمن الخسارة ولا شك أن تذهب لحيته مع رُوحه وهي ستُحلق له على كل حال بعد موته، فما يكون المرء في الجنة إلا أمرد. ورفعت عيني إلى وجه الأمير وقد وطنت نفسي أن أتقدم إليه بعد أن ألمح إشارة الإعدام، راجيًا أن يأذن في نزع لحيته واتخاذها لنفسي، وحولت عيني إلى الشيخ سادن الكعبة فإذا واحد وراءه يجذبه من كتفه.

فقلت: «آه! لقد حُمَّ أجلك يا مسكين! سيقودونك إلى الخارج ليقطعوا لك رأسك.»

ولكن السادن خيب أملي، ذلك أنِ التفتَ إلى من يجذبه ثم إلينا وقال مصححًا: «بطول النصر والتأييد للحكومة السعودية.»

ضاعت الفرصة، خسرتُ اللحية، وسأخرج إذن كما دخلت وليس على وجهي سوى هذه الشعرات القصيرة، وا أسفاه! وسيظل هذا الرجل بشبر من الشعر الشائك على مدار وجهه، على حين أمشي أنا بين الناس محرومًا كاسف البال! وما لحية يضن عليَّ بها الأمير؟ إن صاحبها لا يزيد بها كبرًا، ولا ينقص بغيرها عمره، وقد لبسها دهرًا طويلًا فحَسْبُه طول ما تمتع بها، ولن يضيره الآن وهو واقف على ساحل الحياة أن تُخلع عليَّ، أنا الذي ليس أحوج مني إلى مثلها.

وهبط قلبي، وتدلى على صدري، واسودَّت الدنيا في عيني، وتهضم وجهي، ونقص وزني، وتخاذلت رجلاي، فلو أفسح الناس لي مكانًا كافيًا لتهافت إلى الأرض وتهاويتُ كومًا مفككًا من العظام اليابسة والأعصاب المرهقة، وأدبر لحمُ خدي، وظل يُدبِر ويُدبِر حتى بلغ أصول الشعر ومنابِتَه فبرز معظم الشعر إلى الجذور.

ورفعت يدي إلى وجهي فإذا بي أُحِسُّ لحيتي قد طالت ... من الهزال!

وانطلقت المدافع من قلعة بجاد فطار الحمام عن أكتافنا.

وكَرَّ الأمير راجعًا فكررنا معه نتدافع ونتزاحم، ويستوقفنا رياض أفندي أمام الفوتغرافية فتتلمس رءوسنا فُرجة تظهر منها أمام العدسة، وأشب أنا القصير المسكين ثم أنحط يائسًا، حتى بلغنا الباب، وكنا قد دخلنا من غيره؛ فسبقنا الأمير إلى دار الحكومة، ووقفنا نحن ننتظر أن يجيئونا بأحذيتنا، فلما صارت فيها أقدامنا مضينا بين صفوف الجند إلى دار الحكومة، وراقني منظر الجنود في ثياب «الخاكي» وقلت: باقون لتحيتنا ولا شك؛ فقد مر الأمير. فجعلت أتلفَّت يمينًا ويسارًا وأرفع يدي بالسلام فسألني واحدًا: «على من تسلم؟»

قلت: «أريد تحية الجند يا أخي.»

فصاح بي: «أي جند يا أخي؟ ألا تخشى أن يعدُّوا هذا تهكمًا منك؟ أتريد أن توقعنا في ورطة؟»

فمنحته أعذب ابتساماتي وأرقها وأحفلها بالعطف والمرثية، وواصلت تحياتي وتسليماتي غير عابئ بهذه الغيرة.

وتوقعت أن تنفض الدار؛ فقد كانت غاصة لا موضع فيها لقدم، فلو رميت كرة صغيرة لظلت تتنقل من رأس إلى رأس دون أن تصل إلى الأرض، بل لكان الأرجح أن تصعد مع الناس إلى الطبقة العليا وأن تدخل على الأمير معهم.

وبعد لَأْيٍ ما بلغنا غرفة الاستقبال. وكان الأمير واقفًا في الصدر وحوله الكبراء والجند، والناس يتقدمون إليه ويصافحونه، فإذا كان من بينهم عظيم أو وجيه وضع — أي الوجيه — يده على كتفي الأمير وجذبه وقبَّل أنفه لأن الأنف أبرز شيء في الوجه، وقد وقف الأمير كما رأيناه، مقدمًا أنفه لمن شاء ومتلقيًا عليها قُبَلَ المهنئين ولثمات الداعين، فلما جاء دورنا ودِدت لو أنه كان أمامه كرسي! إذن لقفزت أنا أيضًا بتقبيل أنفه ولجربت ذلك وعرفت سببه وتقصيت سره، ولكني كما تعرف، فاكتفيت بأن تقدمت إليه في تؤدة ووقار، ويسراي تمسح لحيتي تنبيهًا إليها ولفتًا لشيبها، ويمناي تمتد إلى يده وتقبض عليها.

والحق أقول: إن سلام النجديين لا يعجبني لأنه بارد لا حرارة فيه ولا رُوح، والواحد منهم — أميرًا كان أو غير أمير — يمد إليك كفًّا مفتوحة كأنها قطعة من الجبن الطري لا عظم فيها ولا أعصاب لها، فإذا تناولتها وقبضت عليها لم يبادلك ذلك بل ترك كفه لك تصنع بها ما تشاء، ثم يسحبها في فتور وضعف، فتخجل وتبرد الحرارة التي تناولت بها يده، ويجمد الدم في عروقك.

وانصرفنا عن الأمير بعد السلام عليه إلى غرفة أخرى ذهبوا بنا إليها، وهناك سقونا عصير الليمون، ثم ما لبثنا أن دعينا إلى الأمير فدخلنا وجلسنا وهنَّأناه مرة أخرى، وأديرت علينا القهوة النجدية، وأمرها عجيب؛ ذلك أنها خليط من البن والمري والحبهان ولا أدري ماذا أيضًا، وطعم البن يختفي بين هذه الأخلاط الحريفة، ويجيئونك بها في إبريق كبير من النحاس، يحمله الخادم في يسراه، وفي يمناه الفناجين الكبيرة بعضها في بعض، فيصب من الإبريق مقدار رشفة في الفنجانة ويقدمها لك فتقلب الفنجانة على فمك وتهزها لينحدر ما فيها بسرعة، فإذا راقتك القهوة مددت يدك بالفنجانة في صمت فيصب لك رشفة أخرى وهكذا، وإلا هززت الفنجانة فينصرف عنك.

وقد كنت وأنا في مجلس الأمير متعبًا وكان رأسي أحسه ثقيلًا، وخفت أن أنام أنا أو أهوِّم، فقلت أُنبِّه نفسي بالقهوة؛ فرجوت من الخادم أن يملأ لي الفنجانة فإن هذه الرشفات الضئيلة لا تصنع شيئًا ولكنه آثر عادته فذهب يصب لي رشفة بعد أخرى وأنا أناديه بعد كل واحدة وأرده إليَّ، ولا أناوله الفنجانة مخافة أن يذهب عني فلا يعود. فلما تكرر ذلك أربع مرات خطف الخادم الفنجانة وصاح وهو يمضي عني ضاحكًا «يا رجل!»

فقمت وراءه وأنا أقول: «ما هذا الكلام الفارغ؟! أريد قهوة حقيقية لا لونًا في الفنجانة! تعال هنا!»

فأسرع إليَّ واحد من الحاشية يسألني ما الخبر.

قلت: «الخبر أني أريد أن أشرب قهوة حقيقية، وهذا الرجل يضحك عليَّ ويقدم لي دهانًا في قعر الفنجانة لا يسيل ولا يصل إلى حلقي منه شيء، هذا هو الخبر. ثم هذا لساني (وأخرجته) بذمتك هل ترى عليه أثرًا للقهوة؟!»

فقال الرجل: «لا عليك. تعالَ يا هذا، أترع له الفنجانة.»

وقد كان.

وكَفُّوا بعد ذلك عن مخادعتي بلون القهوة وصاروا يجيئونني بها في كل مكان قهوة حقيقية لا شك فيها ولا في مقدارها ولا في طعمها ولا أثرها، ولكنها سرقت النوم من جفوني ففهمت لماذا يكتفون منها برشفة.

وعدنا إلى دار الضيافة لنستريح فأتفق أن لقيت في الطريق واحدًا لم أشك في أنه نجدي وكان فوق نجديته قصيرًا، فأقبلتُ عليه وقلت هذه فرصة، وقلت: «كيف حالك؟ إن شاء الله خير.»

وأهويت على كتفه فجذبتها على نحو ما رأيتهم يفعلون ومططت شفتي استعدادًا لتقبيل أنفه، ولكني لم أحسن قياس الأبعاد وعمل الحساب اللازم، وجاءت الجذبة أسرع وأشد مما ينبغي فوقع فمي على فمه واصطدم الأنفان.

فلما أفاق من دهشته، قلت له على سبيل الاعتذار وأنا أتلمظ وأمصمص بشفتي: «لا مؤاخذة! لقد أردت أن أقبل أنفك، ولكن التدريب ينقصني. على كل حال الخيرة في الواقع. السلام عليكم.»

وذهبت أعدو ولحقت بإخواني وهم يهمون بالعودة إليَّ وقد توهموا لبلاهتهم أننا اشتبكنا في مصارعة.

بين مكة والكندرة

اشتهيت وأنا جالس في «دار الضيافة»، أن أدخن «نرجيلة» أو «شيشة» كما يسمونها في مصر ولستُ من هواتها، ولكني افتقدت منظرها في مكة. وكنا في جدة كلما دخلنا في بيت يجيئوننا بعدد من هذه النراجيل على أشكال شَتَّى وحجوم مختلفة وألوان عدة، فمنها ما هو من الفضة أو المعدن المنقوش أو المطليِّ بالذهب، ومنها القصير والطويل، والذي فيه صنعة والساذج الغفل، والذي خرطومه من المخمل الأرجواني أو الأخضر، إلى آخر ذلك مما لا موجب للتقصي فيه. وأهل جدة يستعملون للنرجيلة طباقًا معالَجًا بالعنبر ومائة مادة أخرى لم أسمع بأسمائها من قبلُ، تجعل له أرجًا قويًّا وتترك المرء — على ما سمعتُ — يحلم.

ولم أفهم لماذا تكثر النراجيل في جدة ولا أثر لها في مكة، وخطر لي — على سبيل التعليل — أننا هنا ضيوف الحكومة، والحكومة لا تدخن ولا تسمح بالتدخين، على الأقل في حضرتها، وفي دُورِها. غير أني لم أسترِحْ إلى هذا التعليل وقلت إن الأعيان الذين يَحُفُّون بنا كان يسعهم أن يقترحوا علينا أن يجيئونا بواحدة؛ فإنا مصريون، وما لا يجوز للملكي جائز للمصري، ثم إنهم يدخنون السجاير فلِمَ لا يتَّخِذون النراجيل، وكله تدخين. وعلى ذكر السجاير أقول إن القوم في الحجاز لا يعرفون منها سوى صنف واحد رخيص رديء هو بعض ما يصنعه ويصدِّره إليهم «ماتوسيان»، وقد يكون في رخصه شك، ولكنه رديء على التحقيق، يتخذه السائق كما يتخذه الوجيه السري، فالديمقراطية كما ترى بخير هناك، وأبرز عناصرها وأقوى مظاهرها هو «ماتوسيان».

وأعود إلى ما استطردت عنه، أعني إلى النرجيلة، فأقول اشتقت أن أضطجع على واحدة من هذه الحشايا الوثيرة وأتكئ بكوعي على حسبانة صغيرة وأن أضع رِجْلًا على رِجْلٍ وأُدني خرطوم النرجيلة من شفتي وأرسل الدخان الكثيف إلى رئتي ومعدتي بل إلى أخمص قدمي، ثم أرده من فمي وأنفي وعيني وأذني وأنفجر بالسعال القوي كأن بركانًا انطلق من جوفي؛ وأظل بعد ذلك بضع دقائق والدخان يخرج من مسام بدني كلها كأني بيت من الخشب اندلعت في جوفه نار الحريق، كما رأيت أهل جدة يصنعون.

ولكني ضبطت نفسي ورضتها على الحرمان من هذه المتعة البريئة، كما رضت شيطاني على الكف على ابتغاء الويسكي، وآلمني ذلك — كما يسهل أن يدرك القارئ بغير عناء — فرأيتني أناجي نفسي وأعزيها بأن أهل جدة مدلَّلون على خلاف أهل مكة؛ هناك — أي في جدة — يجتلي المرء مظاهر الترف والنعمة، ويحس أن للقوم دلالًا على الحكومة — أو دالة إذا شئت — وأن الحكومة تُولِيهم من الرعاية والمجاملة والتسامح ما ليس له مشبه في مكة، وتطلق لهم في أمورٍ نصيبها منها في مكة التشدد. ولقد قضينا في جدة أيامًا لم نشعر في خلالها بأن للحكومة وطأة تُحَسُّ، ولكن أثر الحكومة ووجودها ملموسان في مكة في كل مكان.

وقد أكون أو لا أكون مبالغًا في هذا الذي عَزَّيْتُ به نفسي عن حرماني لذة النرجيلة، ولكني أعتقد أني غير مخطئ جدًّا فيما شعرتُ به من الفرق بين الحالتين في جدة ومكة من حيث سلطان الحكومة؛ فإن قائمقام جدة — أي حاكمها — تاجر، هو يجمع بين التجارة وبين أعمال وظيفته. وخليق بالمصري أن يعجب لهذا وأن يرى فيه شذوذًا عن المألوف في بلاده؛ حيث لا يُؤذَن للموظف أن يشتغل بالتجارة، ثم إن من الحقائق التاريخية أن الجيش السعودي دخل مكة بعد فتح الطائف من غير أن يتلبَّث أو يتلكَّأ، ولكنه لم يقتحم جدة بل أقام حولها وعلى مسافة بعيدة عنها يضرب عليها حصارًا خفيفا لينًا لا يمنع أن يتصل ما بينها وبين مكة، ولعله فعل ذلك حتى لا يقطع المؤن عن مكة، ولكن من المحقق أن الدافع الأول إلى إيثاره الحصار واجتنابه أن يحاول فتحها عنوة أن في جدة قنصليات أجنبية، وقد خشي السعوديون أن تصاب دُورُها أو أحد رجالها بسوء فتتذرع إحدى الدول بذلك وتتخذ منه مسوِّغًا لاحتلال جدة أو غير ذلك مما يجري مجراه، فبقي الجيش محيطًا بجدة شهورًا حتى نفد المال وانقطعت موارده عن الملك السابق علي بن الحسين، وتأخرت رواتب الجند وفشا عليه الأمر، فسلمت المدينة، وأبحر منها علي بن الحسين على بارجة بريطانية محتفظًا من كل ملكه الذي نزل عنه «بسيارته وسجاجيده وخيله»!

وكأني بوجود الأجانب في جدة قد جعل لها مع الأسف مركزًا خاصًّا، وبسط عليها ضربًا ملطفًا من الحماية العامة، وجعل الحكومة تتخذ حيالها مسلكًا هو في جمله ألين من مسلكها في البلاد الأخرى.

ويقيني أنه لو كانت الحكومة السعودية أقوى مما هي وأوفر عدة وأتم سلاحًا وأقدر على الدفاع عن شواطئها وثغورها لاختلف الحال وتغيَّر الموقف، ومن أجل ذلك يتوخى جلالة الملك ابن السعود السِّلْم ويُؤْثِرُهَا على الحرب والنزاع، وذلك ليتسنى له أن يصلح أموره ويرتب البيت، كما يقول الإفرنج، ويعالج مشاكله ويوطد حكومته ويقويها ويباشر ما لا مفر منه من وجوه الإصلاح على قدر ما تسمح بذلك موارده.

وقصدنا بعد أن استرحنا إلى وكالة المالية، ويتولاها نجدي قح، قال لي المستر فيلبي إنه من أمهر الرجال وأذكاهم وأحذقهم في سياسة المال، وغرفته بسيطة وفيها مكتب أجلس أنا في مصر إلى واحد أفخر منه وأجمل، وهناك تفضل سمو الأمير فرَدَّ لنا الزيارة وأذِن أن نُصَوَّرَ معه، ثم رغبت الحاشية أن تُصَوَّرَ هي أيضًا فكان لها ما أرادت. والنجديون يسمون الصورة الشمسية «العكس» ولا يرون في التصوير بأسًا ولا يكرهونه كما كنا نسمع.

وفي وكالة المالية أُلْقِيَتْ خطب ترحيب — لا أذكر الآن بمن على وجه التحقيق — وتهنئة للأمير وجلالة والده بلا أدنى ريب. وهناك أيضًا جيء باثنين من الحجازيين، هما موظفان في حكومته وعملهما طبع «طوابع البريد». فقدمهما الوكيل إلى سمو الأمير وأطلعه على نموذج من الطوابع التي عملت تذكارًا لهذا اليوم؛ يوم المبايعة.

وزرنا بعد ذلك المستشفى وهو رحيب يسع مائتي مريض، وبه أقسام شتى للجراحة والأمراض الباطنية، وأمراض النساء وغيرها، وفيه أطباء مصريون، وبئر أرتوازية حديثة تمده بما يحتاج إليه من الماء، ثم قصدنا إلى دار الكسوة التي أسلفتُ الكلام عليها، ومن ثَمَّ إلى التكية المصرية وهي تؤدي واجبًا إنسانيًّا جليلًا.

وجاء وقت الغداء فتناولناه في دار الضيافة على الطراز الأوروبي أيضًا، ولَشد ما تمنيت لو نأكل مرة على الطريقة العربية أو البدوية، ولكنهم في الحجاز أَبَوْا ذلك علينا وضَنُّوا بمتعته، وأحسبهم توهَّموا أن إطعامنا على الطريقة العربية غير لائق، أو أن ذلك ينطوي إلى شيء من الاستخفاف بنا، أو هو ينافي ما يقتضيه واجب الإكرام.

ثم ذهبنا إلى السوق، وهو على المسعى، وقد كرهت أن أرى الدكاكين في بناء الحرم نفسه، ومِلْنا إلى حارة ضيقة شبيهة بخان الخليلي في مصر، وفيها كل ما في الخان، والتجار فيها خليط من أهل مكة والهنود والفرس وغيرهم، وأكثر ما في السوق هندي أو فارسي، ودخلنا دكان هندي طويل له مساعدان، فزاغت أبصارنا وضلت عيوننا بين الطرف المعروضة، وكان كل امرئ يتكلم ويطلب شيئًا ويسأل عن ثمنه، والمساعدان يقدمان ما نطلب ويحيلان من يسأل عن الثمن إلى الهندي الطويل، ولم يكن معي ولا مع زميل لي مال، فقد خلَّفْنا ما معنا في جدة، فاقترضنا من إخواننا، ولم تكن الأثمان معتدلة ولا الحساب بالنقود الحجازية بالذي يسهُل فهمه؛ ذلك أن الجنيه المصري يساوي عشرة ريالات حجازية، والريال عشرة قروش ونصفه خمسة وهكذا، ولكن الاطراد يقف هنا، فإذا ذهبت تحسب الجنيه بالقروش وجدته يساوي شيئًا عجيبًا: مائة قرش وبضعة قروش أخرى تكون تارة اثني عشر قرشًا وطورًا أربعة عشر، وما أظن به إلا أن قيمته بالقروش تضطرب تبعًا لحالة الجو، فما في مكة ولا في جدة بورصة، وإذا كانت القيمة ثابتة لا تتغير وكنت أن المخطئ فالذنب للتجار وليس لي، فقد كنت أجد قيمة الجنيه عند تاجر غيرها عند سواه، واتفق أني كنت أتوغل في السوق فألفيت القيمة تهبط بعد كل خطوتين قرشًا، فخفت إذا أنا مضيت في طريقٍ داخلًا في السوق ألَّا أدنو من آخره إلا وقد صار الجنيه قصاصة ورق كالمعاهدات الدوليةِ، بل خِفت إذا أنا بلغت نهاية السوق أن أجِد أني أصبحت مدينًا! لذلك ارتددت بسرعة ووليت خارجًا — لا هاربًا — إلى أول السوق، وفي يدي جنيه منشور — مما اقترضت — ألوح به للتجار وأصيح رافعًا القيمة بعد كل بضع خطوات: «ألادو! ألاتريه! يا بلاش! بمائة وعشرين! ألادو! بمائة وخمسة وعشرين …»

فلو طال السوق لرجوت أن أفيد الغنى أو أشتري مكة كلها بجنيهي! ولكن التجار أشفقوا وخافوا مغبة هذا التقدم فوقفوا في وجهي يردونني إلى داخل السوق ويشورون في وجهي كما يفعل الناس ليصدوا جوادًا جامحًا! وتنبهت الحكومة إلى الخطر المحدق بعاصمتها فأقبل عليَّ واحد من كبار رجالها يقول: «لقد ركب الأمير فهلم لتلحق به.»

ولكني كنت مشغولًا بفرصة الغنى التي أتاحها لي ارتفاع قيمة الجنيه في أول السوق وانخفاضه عند آخرها، فلم أعبأ به ومضيت أصيح: «قبل أن نركب! ألادو ألاتريه! أبيع بمائة وأربعين! هل من مزايد؟ بمائة وخمسين!»

فجذبني الرجل وفي وجهه كل أمارات الفزع والارتياع وصاح بي: «يا أخي أجول لك: الأمير ركب! يجب أن تلحقوا به لأن المسافة طويلة.»

فأدركت أنه يريد أن يصرفني عن ربح حلال وقعتُ عليه بذكائي، فنحيته عني وانطلقت أعدو إلى أول السوق، ثم وقفت ألهث وقدرت في نفسي أن تكون القيمة قد بلغت عشرة آلاف قرش، وهممت باستئناف المناداة وإذا بالقوم يحتملونني ويضعونني في السيارة! وانطلق بها السائق كأنه يفر من الموت، فقعدت وأنا أقول لنفسي: «إن هذا ليس من الإنصاف في شيء! وسأظل ما حييت أطالب الحكومة الحجازية بما أضاعت عليَّ وبالتعويض أيضًا! ولن يضيع حق وراءه مطالب.» وغلبني النعاس في الطريق إلى جدة واستغنيت بالأحلام عن حقيقة ما فاتني، كدأبي أبدًا.

والكندرة قصر على دقائق من جدة: وفيه نزل جلالة الملك عبد العزيز لَمَّا سَلَّمَتْ، واستقبل أعيانها وممثلي الدول فيها قبل أن يدخل جدة في اليوم التالي، وفي هذا القصر أقيمت حفلة الشاي التي حضرها الأمير وسبقنا سموه إليها، ولا عجب؛ فإن سموه يركب الرولزرويس ولا يتلكأ في الأسواق ولا يريد الغنى من وراء اضطراب قيمة الجنيه بين التجار، ونحن نفعل ذلك — ولنا العذر — ونركب سيارة يأبى سائقها «صابر» أن يسرع بها لئلَّا يفسدها لأنها جديدة، ولأنه هو على ظرفه وفصاحته حنبلي جدًّا.

ولا حاجة بي أن أقول شيئًا عن الشاي فإنه ككل شاي، وقد شربناه واقفين، كل نحو عشرين إلى مائدة مثقلة بأباريق الشاي واللبن وألوان الفطائر واللمائز والولائق والرصائع. وكان ممثلو الدول يَحُفُّونَ بالأمير، والقائم بأعمال المفوضية البريطانية ووزير الروسيا المفوض يتنافسان على الحظوة عنده ويتسابقان إلى اكتساب وده، أما نحن الذين لم يكن لنا من عمل أهم في الحجاز سوى بطوننا. فقد آثرنا مائدة أخرى ليسعنا أن ندخن كما نشاء، وقد حمدنا لهذين الممثلين المتنافسين أنهما شغلا الأمير عنَّا بإلحاحهما عليه ومطاردتهما له.

ثم خرجنا لنشهد عرض الجيش في الفضاء الذي أمام القصر، ووقف سمو الأمير وأدنانا من صفه لتتيسر الرؤية، فمر المشاة النظاميون في ثياب الخاكي ومعهم أسلحتهم المختلفة، ثم تلاهم من سميتهم حينئذٍ الباشبزوق وأنا أعني بهم البدو، في ثيابهم الفضفاضة المختلفة الألوان، وكانوا على كونهم بدوًا يمشون صفوفًا منتظمة، وجاء بعدهم الفرسان ثم الهجانة صفوفًا متراصَّة لا تلتوي ولا تتعرج ولا تختلف كسوتها ولا

يسبق جمل جملًا، وعليها «الرجاجيل» كما يسمون «الرجال» مثقلين بأدوات الكفاح، وأعقبت هؤلاء المدفعية بأنواعها من مدافع رشاشة وأخرى جبلية أو للميدان أو غير مما لا أحسن بيانه وتفصيله، فما أعرفني رأيت من أنواع السلاح إلا ما يَلعب به الأطفال في الأعياد، ولقد كنت في الحجاز كلما رأيت رجلًا مدججًا بالسلاح أدنو منه وأمد يدي؛ وقد هممت أن ألمس سلاحه وأتحسسه بكفي، فلولا الخوف من أن يظنوا بي أني أريد السرقة أو الخطف؛ لأمتعت نفسي بلمسه.

وأبصرنا من بعيد محملًا صغيرًا مقبلًا علينا فعجبت لهم كيف يَعُدون المحمل المصري صنمًا ثم يتخذون محملًا مثله؟! وأشار الأمير بيده إشارة خفيفة لم يدرك أحد مِنَّا وقتئذٍ معناها أو المراد بها، وحسبناها أمرًا بأن يكر الفرسان على نحو ما يفعلون في الحرب؛ فقد عادوا واحدًا في إثر واحد يخطفون الأرض بخيلهم ويتصايحون وقد رفعوا الرماح أو صوبوا البنادق أو شهروا السيوف، وأشهد أن مناظرهم كانت مزعجة وأصواتهم مفزعة، ولو رآهم القارئ وهم يَعْدُون بجيادهم ويطلقون البنادق من وراء ظهورهم ويطعنون الهواء بحرابهم وشعورهم منفوشة، لحسبهم بعض الجن.

وصفق الناس والتفت الأمير باسمًا ودار ليرجع فسألت واحدًا: «والمحمل؟ لماذا لم نره؟»

فقال: «لقد غاب.»

قلت: «غاب كيف؟»

قال: «لم يبق له أثر.»

قلت: «ماذا تعني؟»

قال: «أمر سموه به فأُبعِد.»

وعلمنا بعد ذلك أن سموه كره لنا أن نرى هذا المحمل بعد أن انقطع المحمل المصري، وكان أحد التجار قد صنعه وكساه من تلقاء نفسه فلما لمحه الأمير أومأ إلى حاشيته أن يردوه فأخطئُوا فَهم مراده فحملوا عليه وحطموه ومزقوه. فكأنه لم يكن!

إلى هذا الحد كان سمو الأمير دقيقًا في مجاملتنا ومراعاة إحساسنا؟!

وقيل: اذكروا أنكم مدعوون إلى مأدبة عشاء في قصر الكندرة، وأن هذه المأدبة رسمية تقيمها وزارة الخارجية أو إدارتها؛ وأن سمو الأمير فيصل سيحضُرها، وأن ممثلي الدول الأجنبية سيشهدونها كذلك. فسألت عن موعد هذا العشاء فقالوا الساعة الثالثة بالحساب

العربي؛ فتناولت ورقة وقلمًا وألقيت نظرة على ساعتي الإفرنجية وشرعت أحسب، ولا أكتم القارئ أني أخيب خلق الله في الحساب، ولقد غلطت وزارة المعارف (المصرية) مرة — منذ نحو عشرين سنة — فكلفتني أن أدرِّس هذا الحساب، فاعترضت واحتججت، فما أجدى عني اعتراضي شيئًا، فقصدت إلى «ناظر» المدرسة الخديوية التي نقلت إليها — وكان إنجليزيًّا — وقلت له: «إن وزارة معارفنا تعتقد أن كل امرئ يصلح لكل شيء، ولكني أعرف من نفسي أني لا أصلح لتعليم الرياضة عامة والحساب خاصة، وأصارحك أني لا أصدِّق أن واحدًا في واحد يساوي واحدًا.

هذا — كما يقول شاعر عربي — كلام له خبيء، معناه ليست لنا عقول.

وقد تكون أو لا تكون لنا عقول، هذه مسألة خلافية ندعها الآن، ولكن المحقق عندي أن العلوم الرياضية وفي جملتها هذا الحساب لا تدخل في دائرة عقلي، فهل لك في عوني على ما أريده؟»

فضحك وقال: «وماذا تبغي؟»

قلت: «تعفيني من التدريس للفرق العالية، وتقنع بأن تكل إليَّ تلاميذ الفرقة الأولى — أعني الحاصلين على الشهادة الابتدائية في هذا العام — ليتسنى لي أن أحفظ الدرس أولًا، ثم ألقيه عليهم؛ فنتعلم معًا، وفي خلال ذلك تبذل وساطتك لتردني مدرس ترجمة كما كنت.»

فسرته صراحتي ووعدني خيرًا، وشرعت في العمل، وكنت أحفظ الدرس جيدًا وأراجع زملائي ثم أدخل على التلاميذ وألقنهم ما حفظت، وقد وفقني الله في الهندسة والجبر، أما الحساب فأعوذ بالله منه! كنت أخطئ في كل مسألة أطرحها على التلاميذ، ولم أكن أكتمهم أني أجهل منهم وأن الذنب للوزارة وليس لي، وأن الوزارة هي المسئولة عن خلطي وتخبطي؛ وأُنصِف التلاميذ فأقول إنهم قبلوا عذري واغتفروا لي ضعفي وحَفُّونِي بعطفهم ولم يبخلوا عليَّ بإيضاح ما يشكل عليَّ، وبهدايتي إلى الصواب حين أضل، وكنَّا أحيانا — إذا استعصى عليهم إفهامي طريقة الحل — نمضي بضع دقائق في ندب سوء حظي وحظهم، وربما قال الواحد منهم وقد فاضت نفسه بالعطف عليَّ والمرثية لي: «كيف ترتكب الوزارة مثل هذا الخطأ الشنيع فتعهد إلى تدريس العلم إلى جاهل به؟»

فيحمر وجهي أو يصفر — لا أدري فما كانت أمامي مرآة — وأقول بلهجة الصابر على قضاء الله فيه: «أنا عارف؟ قل لها يا سيدي! الأمر لله والسلام.»

ولم ينقذني إلا مفتش إنجليزي جاء على عادته ليشرف على سير الدراسة، فعلمت أنه مع الناظر في غرفته، وكانت مجاورة للغرفة التي أنا فيها، فأوصيت الخادم

— أو الفراش كما يسمونه — بأن يدعوه إليَّ حين يخرج، وفتحت الباب على مصراعيه، فلما دخل عليَّ رحبت به واحتفيت بمقدمه وسرت به إلى مقعدي ومكتبي؛ وهناك سلَّمته كراسة التحضير وكراسة الأسماء، وأصبع الطباشير وممسحة السبورة. وقلت له: «التلاميذ أمامك، ومعك كراساتي وأدواتي فالسلام عليك ورحمة الله وبركاته.» وخرجت، فجرى ورائي وأدركني أمام غرفة الناظر وقال: «إن هذا جنون، فعد إلى فرقتك.»

فقلت: «جنون! وهل كنت تنتظر أن أظل عاقلًا؟ لقد صارحتكم مائة مرة بأني حمار؛ فماذا تريدون؟ إن لي ذمة، وذمتي لا تقبل أن أضيع على التلاميذ المساكين سنة من أعمارهم.»

قال: «ولكني أكدت لك أننا لا نجد مدرسًا للرياضة فيحل محلك. فانتظر حتى نجد واحدًا ثم نعيدك إلى الترجمة.»

فقلت: «كلا! تتولى أنت التدريس حتى تجدوا المدرس. وأنا مستعد أن أقوم عنك بمهمة التفتيش.»

فضحك، وضحك الناظر وكان قد خرج على صوتنا، ولا أطيل: أقنعاني بالعود إلى فرقتي على ألا يطول عذابي إلا أيامًا معدودات؛ وقد كان.

وقد قصصت هذا التاريخ القديم ليعذرني القارئ إذا كان قد عزني أن أعرف الوقت بالحساب الإفرنجي، ولقد ملأت واللهِ الورقة كلها بالأرقام لأعرف كم تكون الساعة بالحساب الإفرنجي في الحجاز إذا كانت الثالثة بالحساب العربي في الحجاز أيضًا، فألفيتها تكون كل ساعة ما بين الأولى والرابعة والعشرين، إلا التاسعة مساء كما زعموا، وقد اتفق مرة أن أنتج حسابي الساعة التاسعة ولكنها كانت التاسعة صباحًا! فمزقت الورقة يائسًا ورميت القلم من النافذة.

وملت إلى واحد وهمست في أذنه: «أرجو أن تصدُقني! كم ساعة باقية لنا قبل هذه المأدبة؟»

فأخرج ساعة ونظر فيها وقال: «ساعتان ونصف.»

فقبلته بين عينيه وقلت له: «إنك آية من آيات الله في الذكاء وحدة الذهن. ولو كان الحسد في طبعي لحسدتك؛ فإن من المدهش ولا شك أن تستطيع عمل كل هذا الحساب المضني في ربع ثانية! فتح الله عليك! فتح الله عليك!»

وخرجت أعدو إلى غرفتي ووقفت أمام المرآة وقلت لخيالي فيها: «اسمع يا مازني، إن هذه المأدبة رسمية وسيحضرها وزراء الدول وقناصلها فينبغي أن تكون فيها فخرًا

لبلادك وعنوانًا على ما بلغته من الحضارة والرقي، لا عارًا عليها وسُبة لها؛ فالبس ثياب السهرة وإن كانت من طول ما طُوِيَتْ في الحقيبة قد تجعدت وتثنيت وصارت كالوجه الذي غضَّنته الشيخوخة، ولكن هذا حري بأن يُغتَفَر في الحجاز، وعندك في هذه الحقيبة كتاب في آداب السلوك في المجتمعات فأخرجه وادرسه بسرعة؛ فإن في ساعتين الكفاية، أفهمت؟ إذن فإلى العمل!»

وتناولت الحقيبة وحططتها على السرير وفتحتها بسرعة وأخرجت بذلة «الاسموكنج» والقميص الأبيض والرباط الأسود، وسائر ما تتطلبه هذه البذلة، ونضوت ما على بدني من الثياب، ثم تذكرت الكتاب فأخرجته وقعدت على السرير أدرسه وأنا نصف عارٍ وأجريت عينيَّ في الفهرس حتى استوقفني هذا العنوان: «فن الانحناء».

ففتحت الصفحة التي يشير إليها الفهرس وقرأت وأنا كالمسحور ما ترجمته:

> إن الانحناء، ولمن يكون وكيف يكون وفي أي وقت يكون؛ فن قائم بذاته، وإتقان ذلك وتجويده، والحذق فيه والأستاذية، أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب.

فخفق قلبي طربًا وشاع فيَّ السرور علوًّا وسفلًا، وبعد أن قضى بدني وطره من الوثب والقفز — أو الرقص إذا آثرنا الرقة في التعبير — عكفت على الكتاب لألتهم منه هذا الفن الجليل فقرأت:

> وأول ما يجب على المرء، أن يكون وضع القدمين كأول وضع لهما في الرقص.

فكفأت الكتاب على ركبتي وذهبت أحضر إلى ذهني وأتمثل هذا الوضع الأول في القرص؛ فطافت برأسي صور شتى للأقدام كما كنت أراها في المراقص المصرية، غير أنه ما من صورة كانت تشبه الأخرى، فألححت على خيالي وكددت خاطري وحصرت ذهني في هذا الموضوع وطردت عنه كل ما عداه حتى صار رأسي وليس فيه إلا أحذية «ضاحكة اللألأ» تروح وتجيء وتنساب تحت السيقان الـ ...»

وخفت أن أترقى في التصور من الأحذية إلى ما فوقها فيتم فساد العمرة التي أفسدها المطوف وأشياء أخرى حدثتك عنها فيما أسلفت عليه القول.

ثم قرأت:

> وترفع اليد اليسرى بخفة ورشاقة وتوضع أطراف بنانها على الصدر فوق القلب، ثم يُحنَى الرأس ويليه الجسم مما يلي الردفين وتكون اليد اليمنى

في أثناء ذلك ترسم «في الهواء خطًّا مقوسًا بلباقة وأناقة»، ومما ينبغي توخيه والتدفق فيه والحرص عليه أن «يكون تعبير الوجه فاتنًا على قدر ما يستطيع صاحبه، ونظرة العينين سابية ساحرة، أما درجة الانحناء فرهن بمقام الشخص الذي له التحية ... إلخ إلخ.

وطويت الكتاب وأطرقت، فما كنت أظن الانحناء يمكن أن يكون عملًا معقدًا إلى هذا الحد! ومن لي باللباقة ومن أين أجيء بالرشاقة إذا وسعني أن أؤدي هذه الحركات؟ إن كل ما أحسنه هو أن أهزز رأسي متتابعًا — من أعلى إلى أسفل، أو من اليمين إلى اليسار — إذا أردت الإعراب عن الموافقة أو المخالفة؛ كسلًا مني عن النطق بنعم أو لا، وقد ألاقي في الطريق بعض من أعرف وتكون بيني وبينه مسافة تمنع الكلام فأحاول أن أومئ إليه برأسي، وإذا به يتجهم ويحدجني بالنظر الشزر، فأعجب لسوء أدبه في رد التحية، وقد تبينت فيما بعد أني لم أكن أهز رأسي بل أحرك حاجبيَّ؛ فكان الناس يحملون هذا مني على محمل السخرية ولو علموا لعذروا.

وقلت أتدرب؛ فوثبت إلى قدمي واستويت واقفًا أمام المرآة وقلت وأنا أبتسم لخيالي فيها وأنحني: «يا سيدي الأستاذ المازني إني أحييك وأؤكد لك أني خادمك المطيع وأدعو لك بطول العمر.» ثم اعتدلت بسرعة فقد شق عليَّ منظري، وكنت لا أزال نصف عارٍ، وعجَّلت بارتداء الاسموكنج حتى إذا فرغت من ذلك خرجت أتخطر وأنحني بعد كل خطوتين أو ثلاث انحناء عميقًا كأني ماثل بين يدي ملك الملوك على الأقل، أو أفتن امرأة في العالم؛ وإذا بطربوشي تكبسه على رأسي بطن الخادم فتراجعت قليلًا لأفسح لنفسي، ورميت إليه انحناءة عميقة وقلت وعلى فمي ابتسامة لم يخالجني شك في عذوبتهما وسحرها: «سيدي إني أعتذر وأحيي في شخصك فضائل الطاعة والإخلاص والأمانة.»

فارتبك المسكين وجحظت عيناه وتصبب العرق البارد من جبينه وصار يتلفت يمنة ويسرة كالذي يبحث عن نافذة يثب منها، حتى إذا وقعت عينه على الباب؛ ولَّى هاربًا؛ فتلبثت هنيهة أصلح من شأني وأرد طربوشي عمَّا جار عليه من وجهي ولمَّا لم أجد أمامي أو معي أحدًا من خلق الله استقبلت الباب وألقيت إليه انحناءة بارعة، وإذا بأصوات من خلفي تصيح بي: «إيه ده بس في عرض النبي؟ طلعت البلا على جتة الخدام.»

فدرت على عقبي وجُدْتُ عليهم بانحناءة متقنة وقلت وأنا أرسم بيمناي قوسًا مزدوجًا: «سادتي، إني عبدكم الخاضع المطيع وخادمكم الوفي الأمين.»

فقال أحدهم وهو يثور بكلتا يديه كأنما يطرد عن وجهه جيشًا من الذباب: «خادم إيه وزفت إيه؟ هل جننت حتى تنحني للباب وللخدم والهواء؟! ما معنى هذا؟»

قلت: «عفوًا، ولكني أظن المعنى واضحًا جدًّا، وكل ما في الأمر أن الشوق إلى الانحناء لَجَّ بي ولما أجد خيرًا من الخادم أو الباب لم أَرَ أن هذا من حقه أن يحول دون إطفاء حرارة الشوق الذي أكابده؛ فأما وقد تفضلتم عليَّ بالظهور لي في الوقت المناسب فاسمحوا لي أن أقوم بتجربة أخرى على مرأى منكم وأرجو أن تجعلوا بالكم على الخصوص إلى سحر ابتسامتي فإني أريد أن أطمئن عليها.»

ورددت قدمي اليسرى خطوة ورميت إلى كل منهم انحناءة باهرة، فوجموا قليلًا ثم راحوا يدقون كفًّا وقال أحدهم: «هذا جنون مطبق.»

فقلت: «كلا! ولكنَّ عندي كتابًا يؤكد واضعه أن الانحناء البارع أكبر ما يمتاز به الرجل المهذب. وأنا مستعد أن أعيركم إياه فإن العلم بما فيه ينقصكم على التحقيق.»

ولا أطيل، عراهم سهوم الحسد فجلسوا صامتين برهة ثم نادى أحدهم الخادم أو صفق له على الأصح وقال لي قبل أن يدخل الخادم: «لا أدري من أين تجيء بهذه الكتب، وإن كنت عظيم الشك في وجود كتاب كهذا، ولكن الذي أريده أن الخادم قد ارتاب في عقلك فأرجوا — ألح عليك — أن لا تفعل أمامه شيئًا وكفى ما فعلت.»

فلم أعلن بالرد عليه وشربت القهوة التي طلبتها في صمت، فقد كنت راضيًا عن نفسي معتزًّا بما أحرزت دونهم من براعة وحذق.

والجو في الليل يبترد في جدة؛ وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساء (بالحساب الإفرنجي) على ما زعموا حين أُعِدَّتْ لنا السيارات لركوبها إلى الكندرة، فقلت لسائقنا الجديد وكان هنديًّا — فقد هجرَنا صابر ومَلَّنَا وجفانا بعد مكة: وأنزل الغطاء فإني أريد أن تكون السيارة مكشوفة.

فصاح زميلي: «ولكن الجو بارد والرياح عنيفة.»

فقلت: «اسكت أنت من فضلك. أتريد أن تحرم أهل جدة منظرنا في ثياب السهرة؟! إنه منظر لا يرونه إلا في الندرة القليلة والفلتة المفردة، وحرام علينا أن نضن به عليهم.»

فقال: «يا أخي إن الطريق صحراء لا ناس فيه ولا شجر، فاصنع معروفًا ودع الغطاء مرفوعًا.»

قلت: «كلَّا، أنا أيضًا لا ألبس الاسموكنج كل ليلة، وليس من الإنصاف لي أن أرتديها وأتحمل عذاب هذه البنيقة (الياقة) الناشفة وأن أختفي وأتوارى عن العيون، إذن لماذا تجشمت كل هذا التعب؟»

ولا أحتاج أن أقول إن زميلي في السيارة اقتنع بسداد رأيي، وإننا ركبنا السيارة مكشوفة وخرجنا بها من جدة إلى الصحراء في طريقنا إلى الكندرة، ولم تكن المسافة طويلة؛ فقد كنا نرى أضواء القصر بعد أن جزنا سور جدة، وكان القصر يعب بالناس ويزخر بالضيفان، فجعلت أطوِّف بالحجرات الخاصة بالخلق وأعجب أين تُرى سنأكل وليس في القصر شبر خالٍ؟ وضحكت في سري وقد تذكرت قول المتنبي في كافور:

جوعان يأكل من مالي ويمسكني كما يقال عظيم القدر مقصود!

وخطر لي أن هذا حالنا! نُدْعَى مئاتٍ إلى القصر ونُحجَز فيه ولا طعام، واستحييت أن أسأل وأنساني القلق على العشاء والخوف من عض الجوع ما أتعبتُ نفسي حتى مهرت فيه — أعني الانحناء — ولكن وجهي كانت مرتسمة عليه ابتسامة تشجِّع الناس على المصارحة، فدنا مني واحد قال: «ألَا تحب أن ترى مكانك من المائدة؟»

وهنا تذكرت الفن الذي حذقته فتراجعت وانحنيت ثم استويت وقلت: «سيدي، إني تحت أمرك.»

فحملق في وجهي وتلعثم، ولا عجب فما له عهد بمثل هذه الأستاذية، ولم يزِدْ على أن قال: «تفضل.»

فجدت عليه بانحناءة أخرى أدق وأبرع وقلت: «سيدي، إني أرجو أن تتقبل شكري الخالص الذي يفيض به قلب يعرف الجميل ولا ينكره و…»

فهرول الرجل، وبدا لي أن الحزم أن أهرول وراءه لئلا يهرب أو يختفي في الزحام، والدنيا كما تعلم فرص، والضيوف هنا مئات، وأي طعام يمكن أن يكفي هؤلاء جميعًا؟

وانحدر دليلي الهارب من سلم خلفي لم أَرَهُ من قبلُ ولم أفطن لوجوده لأن عليه أستارًا مسدَلة تحجبه. وانحدرت وراءه إلى الصحراء، أو على الأصح إلى رقعة اقتطعوها منها وأحاطوها بسياج من نسيج الخيام الموشَّى وأضاءوها بالكهرباء والغاز أيضًا على سبيل الاحتياط، ومدوا فيها الموائد على شكل مستطيل ورتبوا المدعوين بأسمائهم، فلكلٍّ مكانه الذي لا يعدوه، وأعتدوا لكل واحد ما يحتاج إليه من الأطباق والملاعق والسكاكين وغير ذلك على الطريقة الأوروبية، وأقاموا في قلب المستطيل فوق بئر يسقى منها القصر،

شبه مسرح زيَّنوه بسعف النخل ورفعوا عليه صورة كبيرة لجلالة الملك عبد العزيز بن السعود، وجعلوا فوقها رايتهم وهي: «بسم الله الرحمن الرحيم» وعليها سيفان لا شك أنهما ماضيان. وقد أعجبني ذوقهم في حجب البئر عن العيون وحيلتهم بالانتفاع بها واستخدامها.

وآن أن يُطعمونا، وكان هذا قد آن جدًّا قبل ساعة، فجلس سمو الأمير فيصل في الصدر وإلي يمينه معتمدو الدول الأجنبية، وإلى يساره زكي باشا ونحن نتلوه، وبين كل اثنين منا رجل من كبراء الحجازيين، وتوسط فؤاد بك حمزة مدير الشئون الخارجية ضلعًا آخر من المستطيل وعلى يمينه ويساره قناصل الدول وفي جملتهم قنصل مصر وإن كان غير معترف به، وهم يدعونه بصفة غير رسمية إلى الحفلات ومآدبها على الرغم ممَّا بين البلدين من الجفوة الحكومية المتكلَّفة التي لا مسوغ لها.

وكان أمام كل نحو ثلاثة من الضيوف — فوق المائدة — كرسي واطئ عليه طشت كبير غاصٌّ بالأرز المحمر المخلوط بالصنوبر والزبيب وما إلى ذلك، وفوق هذا كله كبش محمَّر تفوح رائحته المغرية وتتضوَّع إلى أنوفنا، فننظر إلى الأمير فلا نراه يمسه فنكف ونتنهد، وقد طافوا علينا بتسعة عشر لونًا من الأطعمة الشهية حتى اكتظظنا جدًّا ولم نعد نستطيع أن نتنفس، وبرزت صدورنا وصارت لنا كروش كروية عظيمة. وعلى كثرة ما أكلنا، أعترف أني قمت متحسرًا على الخروف الذي كان أمامي، ولا أدري لماذا يذبحون كل هذه الخراف الجميلة ويحمِّرونها إذا كانوا لا يأكلونها ولا يدعوننا نصيب منها شيئًا؟ قد خامرنا الشك في أنها خراف حقيقية كانت قبل ساعات تثغو وتقول: «مآء! مآء!» وقلت لعلها رسوم مجسمة على صور الخراف، ولكني لم أَرَ أثرًا لهذا الفن في الحجاز.

ويخيل إليَّ أن حكومة الحجاز تعتقد أن ضيوفها شرهون، وإلا لتوخت بعض القصد فيما قدمته من صنوف الطعام؛ فإن ما أدير علينا كان يكفي أمة بأسرها، على أن العرب جميعًا يبالغون في مقدار ما يطعمون ضيوفهم، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة البداوة وما ورثوه من أخلاقها وعاداتها، لكنه إسراف على كل حال، ولو كان لي من الأمر شيء لطلبت الحَجْر على الحكومة والناس جميعًا هناك.

وخطب فؤاد بك حمزة في ختام المأدبة لمناسبة انقضاء عام على مبايعة ابن السعود ملكًا على الحجاز؛ فبيَّن ما قامت به الحكومة السعودية من الإصلاح وما تفكر فيه من وجوهه المختلفة، ورحَّب بالمدعوين جميعًا وخصنا نحن المصريين بالذكر الطيب، وأعرب عن أمله أن نكون رسل سلام ووئام بين الشعبين الشقيقين، فأجابه زكي باشا بالنيابة

عنا وشكر وأثنى كما ينبغي، ثم حمس فانطلق يخطب بالفرنسية ليُفهِم عنه الأجانب، ولم يفُتْه أن يشنِّع علينا لأنا طُفْنَا بالسيارة متخذًا هذا دليلًا على أن الإسلام يتسع لكل ما تجيء به الحضارة، ونسي — عفا الله عنه — أن طوافنا بالسيارة كان بإذن سمو الأمير؛ فعلى الأمير حسابه.

في وادي فاطمة

كان بيتنا — أعني بيت العويني — في طرف المدينة — أعني جدة — أو لعل هذا مبتداها فما أعرف أين بدايتها وأين نهايتها، وكل ما أدريه أنه قريب من البوابة المؤدية إلى طريق مكة والمدينة، وأنه — أي البيت لا الطريق — يطل على البحر وعلى ما كان في عهد الأتراك يسمى «الكازينو»، وهو الآن مهجور، وكان يومنا الخامس هو الخميس، وهو اتفاق لم نعتمده، وفي صبيحته احتشد عندنا كل زملائنا إذ كنا على طريقهم، وكان الغداء في وادي فاطمة، وكانت السيارات أمام الباب تدور وتلف وتصطف استعدادًا للسير، فجلسنا نشرب القهوة المصرية — أو التركية كما يسمونها — ونتلاغط ونتكلم جميعًا في وقت واحد ولا يصغي أحد منا إلا لنفسه.

ثم قيل: «تفضلوا» فتفضلنا، أعني أن بعضنا وقفوا ثم نظروا إلى الباقين فألفوهم جلوسًا، فقعدوا مثلهم؛ فسُئِلوا «لماذا قعدتم؟» فقالوا «حتى يقوم هؤلاء.» فمضى الداعي يستنهض الآخرين ويشد أذرعتهم وهم معرضون عنه ماضون في كلامهم، ويكرر لهم دعوته أن يتفضلوا فيقوم الواحد منهم متثاقلًا وكأنه لا يعي ما يفعل، ولسانه لا يكف عن الكلام ووجهه لا ينثني عن الإعراض، ثم نسير خطوات فيقف واحد ويواجه الباقين ويضطرهم إلى الوقوف والإصغاء، حتى على السلم كان هذا يتكرر، فكان يتفق ونحن نازلون أن يقف واحد بغتة ويدير إلينا وجهه، وتكون أرجلنا مهيَّأة في هذه اللحظة للهبوط وأجسامنا محنية؛ فنردها — أعني أرجلنا — بسرعة، ونستوي واقفين فتصطدم الرءوس بالصدور التي وراءها، وترتفع الأصوات بالسخط وألفاظ الاحتجاج والاستهجان ... وهكذا ...

وأَجَلْتُ عيني في السيارات وسائقيها، فإذا «صابر» — ذلك الغلام الحنبلي — قد جفانا وآثر علينا سوانا، فترقرق الدمع في عيني وتدلى رأسي على صدري، فقد كانت

صحبته رضية وحديثه شهيًّا، وهو على الرغم من شبابه اليافع فتى مخضرم إن صح هذا التعبير، أعني أنه أدرك جاهلية الحسين وعهد ابن السعود، فأفاده ذلك حكمة ليست لسنه وكياسة لا تكون مع الشباب، وعلمًا بالدخائل واطلاعًا على الخبايا، فقد كان كما أسلفت القول في موسيقى الحرس الخاص بالحسين وبنيه، وهو الآن عامل في شركة القناعة للسيارات. غفر الله له وعفا عنه فإنه مصري مثلنا.

وأفسحوا الطريق وانطلقت السيارات، وعزائي أن سائقنا الهندي لا يعرف الطريق — ولا العربية — وأن «صابرًا» الذي هجرنا أمره — لا أدري بأية لغة فما فهمت كلمة من حديثهما — أن يتبعه ولا يسبقه، كذلك قال لنا صابر مترجمًا، فأدركت أن في «صابر» رقة على الرغم من حنبلية مظهره.

والطريق إلى وادي فاطمة هو عين الطريق إلى مكة، ولكنه ينحرف عنه قبلها ويذهب يسرة ويصبح ذلك وعرًا، كله حُفَر ونُقَر وصخور وتراب، وكان الهواء قد أسكرني فنمت، ومن عادتي إذا كربني هَمٌّ أن ألتمس السلوان في النوم، وأن أتعزى بالأحلام وأضغاثها عن الحقائق ومرارتها، وهذا من فضل الله عليَّ، ولَكَمْ قلت لمن يحلو له أن يهجرني ويحسب أنه بذلك يعذبني: «إذا كان في وسعك أن تصد عني فإن في مقدوري أن أصد عن الدنيا كلها والحياة بأسرها، انظر!» ثم أضع رأسي على الوسادة وأغمض جفني وأقول: بسم الله الرحمن الرحيم، توكلت على الله الحي القيوم الذي لا ينام، وأهب من فوري إلى وادي الأحلام.

ولكنا لم نكد نميل عن طريق مكة الممهَّد حتى استيقظت والشرر يتطاير من عيني، فقد توهمت أن زميلي ضربني على رأسي وكبس طربوشي على أذني، وهممت بأن أمسك بتلابيبه — أعني بربطة رقبته — وفي نيتي أن أضيقها على عنقه حتى يختنق، ولكن الطريق عاجَل السيارة بحفرة أخرى، وإذا بي أرتفع عن مقعدي — وحدي بلا معونة — وأطير بقدرة الله حتى أبلغ السقف، ثم أنحط كالحجر، وإذا بطربوشي قد غطي عينيَّ أيضًا وهوى إلى أرنبة أنفي؛ ففهمت، وحاولت أن أخرج رأسي فلم أستطع، فشددت الطربوش من زره، فبقي الطربوش في مكانه وخرج الزر في يدي، فأهبت بزميلي الراكب معي أن يساعدني. وكان لسوء الحظ نائمًا، وكنت أنا بفضل الطربوش لا أراه ولا أعرف ذلك فحسبته يتعمد أن يمنع عني معونته، وغاظني هذا منه، وذكرت مثلنا المصري العامي القائل: «ضربوا الأعور على عينه قال خسرانة خسرانة.» فتوكلت على الله ونطحته في كرشه — فقد كان ذا كرش كما نسيت أن أخبر القارئ — فهب

مذعورً يقول: «بع بع.» واندفعت كلتا يديه إلى كرشه فوقعت على الطربوش — وكنت أهم بنطحه مرة أخرى — فتزحزح إلى آخر المقعد اتقاء للنطحة، وأحسست أصابعه على حافة الطربوش مما يلي أذني! فجذبت رأسي إلى الوراء فجأة وبقوة فخرج الطربوش في يديه مقلوبًا فاعتدلت وقلت له: «أشكرك يا صديقي. والآن هل معك دبوس؟»

فصاح بي: «ما معنى هذا؟ أريد أن أفهم! حالًا!»

قلت: «معناه أن زر الطربوش في يدي، وأنه لا يليق أن أبدو للناس هكذا — أعني بغير زر — فهات دبوسًا واكسب الشكر من صديقك.»

قال وهو مقطب: «ولكن هذا لا يليق. وإذا كنت حضرتك تظن …»

فقلت أقاطعه: «تمام. لا يليق أبدًا؛ ولذلك أرجو أن تعطيني دبوسًا، ثم إن اسمي إبراهيم أفندي عبد القادر المازني.»

فقال وهو يمط شفتيه اشمئزازًا: «يعني حضرتك فاهم …»

فأسرعت إلى إتمام الجملة بدلًا منه: «… إني لا أستطيع أن أظهر بطربوش ليس له زر، بالضبط، واسمي إبراهيم أفندي عبد القادر المازني.»

فشور بيديه كلتيهما وقال «أوه … ده شيء يجنن!»

ثم عاد فالتفت إلي وقال: «يعني إزاي حضرتك تنطحني؟ عمري ما شفت كده! دي رحلة زي الزفت!»

فقلت: «إني أراها على عكس ذلك … أجمل رحلة قمت بها في حياتي، وأرجو أن نقوم بها معًا مرة أخرى.»

ويظهر أنه يئس وفوَّض أمره لله ولسوء حظه، فأعرض عني وهو يقول: «ابقَ دور على غيري.»

فقلت: «إن شاء الله وإن كان هذا من دواعي أسفي — أعني في المستقبل — وفي أثناء ذلك أرجو أن تعطيني دبوسًا.»

فلم يعد يستطيع أن يكظم غيظه وسخطه ونقمته وصاح: «دبوس إيه يا أخي؟ هو أنا دكان مانيفاتورة؟ ولا حضرتك بتتريق؟»

فقلت «معذرة. ليس بي حاجة إلى الدكان كلها. إنما أريد منها دبوسًا واحدًا، أو إبرة إذا أمكن، بل الإبرة خير، وأرجو أن تذكر أن اسمي إبراهيم أفندي عبد القادر المازني.»

فضحك أخيرًا بعد أن أدرك مرادي وقال: «طيب وحياة أبوك تبعد عني بقي يا إبراهيم أفندي يا عبد القادر يا مازني.»

فانصرفت عنه إلى السائق وأشرفت عليه من ورائه لأرى هل في صدره دبوس أو نحو ذلك، ففزع الأبله واضطرب وارتفعت يداه عن عجلة القيادة فكادت السيارة تنقلب بنا في حفرة لولا أن أسرعت ومددت يدي إلى العجلة وحوَّلت السيارة عنها؛ أعني عن الحفرة.

ولا أطيل، اضطررت أن أحمل طربوشي في يدي، وأن أشكو حرارة الشمس ووقدتها حتى وجدت من يعيرني دبوسًا أصل به الزر إلى عنق الطربوش حتى نعود إلى جدة.

ووادي فاطمة وادٍ — كما هو ظاهر بالبداهة — ولكنه غير ذي زرع كثير؛ فيه نخيل وأعناب، وفيه موز وباذنجان، وطماطم وليمون، وملوخية وبامية، وأحسب هذا كل ما فيه أو أكثره، وله عين يترقرق منها الماء ويجري في مجرى ضيق يستطيع المرء بأيسر مجهود أن يتخطاه من جانب إلى جانب، وإذا وضع يده فيه — أي في الماء — لم تبتل إلا عقلة واحدة من أصبعه، وهم مع ذلك يباهون به ويعتزون، وقد هززت رأسي أسفًا حين رأيته — أعني الماء — وقلت لواحد كان واقفًا إلى جانبي وأنا أقوم بهذه التجارب: «إن لنا في مصر نهرًا عظيمًا ينبع في جبال القمر على قول، ومن الجنة على قول آخر أظنه الصحيح، ويقطع إلى البحر آلاف الفراسخ، وتستطيع الأساطيل الضخمة أن تغرق فيه إذا شاءت، ومع ذلك لا يكفينا ولا نقنع به، ولا تزال بلادنا أكثرها صحراء بلاقع كما هي هنا. فالحق أن بلادكم أو على الأصح فدافدكم، تعلم لزهادة وتروض النفس على القناعة.»

وهناك في قلب الوادي رأينا الخيام مضروبة، واحدة للأمير وأخرى للاجتماع، وثالثة لموائد الطعام؛ فقد جلبوا إلى الصحراء أدوات الطعام كاملة لا ينقصها كوب من الزجاج ولا سكين ولا ملعقة، وقد عجبت لهم كيف استطاعوا أن ينقلوها من غير أن تتحطم الآنية كلها!

وكان الأمير قد سبقنا، والمكان قد ازدحم، وحفَّ ممثلو الدول بالأمير فجاءونا بكراسي وصَفُّوها أمامه فجلسنا بينه وبين الناس، وبدءوا يلقون الخطب ويُنشِدون القصائد بين يديه، يمتدحون فيها العهد السعودي ويصفون ما بلغت البلاد في ظله وبفضله، وساءني أن التلاميذ شجعهم أساتذتهم على المبالغة والغلو، ولم أرتح إلى سماع كلمات «العلى والمجد والقمة والسنام» إلى آخر ذلك مما زعم التلاميذ في خطبهم أن الحجاز ارتقى إليه، وقلت لجارٍ لي — وأظنه كان حجازيًّا — إن هذه المبالغات السخيفة هي داؤنا جميعًا، وإننا جميعًا — في مصر والشام والعراق والحجاز … إلخ — أحوج

إلى مواجهة الحقائق وفتح العيون على الواقع وقياس ما بيننا وبين مَن سبقنا من الأمم، وإن من الإجرام أن نخدع أنفسنا ونغالطها في هذه الحقائق، ومن الجناية أن تُنَشِّئُوا هؤلاء الأطفال على التوهُّم أن بلادهم بلغت أوج المجد وارتفعت إلى قمة العلى وغير ذلك من الكلام الفارغ. وإنه أجدي عليكم أن يعرف كل امرئ مبلغ ما يُطلَب منه في سبيل بلاده لتتهيأ نفسه لبذل الجهد الذي يحتاج إليه. وضربتُ له مثلًا، فقلت: إني قد أرى شيئًا أتوهمه خفيفًا فأمد إليه يدي لأرفعه وأنا غير محتفل، ويتفق أن يكون ثقيلًا على عكس ما تصورت، فأعجز وأخسر وقتًا وجهدًا في غير طائل، ولكني إذا عرفت أنه ثقيل، أشد أعصابي وأوحي إليها أن تستعد لجهد عظيم يناسب ثقل الشيء الذي أريد رفعه أو حمله، فيجيء المجهود معادلًا للمطلوب فأنجح، وهكذا في غير ذلك، في صغار الأمور وكبارها، فلا تغشوا أنفسكم فإن هذا شر ما تسيئون به إليها، ولا تستهينوا بكلام تظنونه يذهب في الهواء؛ فإنه لا يذهب في الهواء بل يتقرر في ثرى النفوس ويرسخ في العقائد ويستكن في ضمير الفؤاد من حيث لا تشعرون، وإذا كان كل مرادكم أن تثيروا الشعور بالعزة القومية؛ فإن لهذا سبلًا أخرى، ولا خير على كل حال في الفخر الأجوف.

وكان بين الشعراء رجل من الكويت — إذا كانت ذاكرتي لم تَخُنِّي — وشِعره سخيف ولكن إنشاده بديع، وقد كان وهو يلقي قصيدته الطويلة يغني ويمثل، وأشهد أن صوته صافٍ خالص كصوت الفضة، وأن غناءه بارع وخالٍ من التخنُّث والتطرِّي، وأن تمثيله حسن مطابق للمعاني مؤدٍّ لها على وجه الإحكام.

وتلاه شاعر نجدي قح أعوذ بالله من إلقائه، فليته جاء قبل الكويتي، ولكنه أبى إلا أن يجيء قبل الطعام فكاد يصدنا عنه ويفتِّر رغبتنا فيه، ويزهدنا في الشعر والأدب والعرب، بل في الحياة نفسها، فأعوذ بالله مرة أخرى وثانية وثالثة من إلقائه، وسأظل أستعيذ بالله منه كلما ذكرته؛ فإنه يفسد عليَّ نومي ويسود العيش في عيني، ويغثي نفسي ويكرب صدري، وقد ضرست أسناني لما سمعت صوته، وأحسست كأن الحكة قد شاعت في جلدي — أعني الجرَب والعياذ بالله مرة رابعة منهما أعني الجرب والصوت — وإني لأوصي الحكومة الحجازية أن تقطع ألسنة الشعراء النجديين إذا كانت أصواتهم منكرة كهذا الصوت؛ فإن البكم خير ألف مرة، وهذا الصوت — إذا كان له مشبه — خليق أن يغري الخلق بالفتنة والتمرد ويدفع الرعية إلى الانتفاض والثورة.

وقمنا إلى الطعام بعد هذا البلاء الشعري، وكانت ألوانه — أعني ألوان الطعام لا البلاء — مغرية، وكانت الخراف الشهية في الطشوت تخايلنا، فسألت: هل هي للزينة كما

كانت في مأدبة الكندرة أم للأكل؟ فضحكوا وقالوا: بل للأكل. فألقيت السكين والشوكة، وشمرت كمي ونهضت عن الكرسي وقلت لعبد من الواقفين: «ارفع هذه الصحون من أمامي وأفسح لذي القرنين؛ فإني أراه لا يزال ذا قرنين على الرغم من الذبح والسلخ والشيِّ والتحمير. هاتِ عَجِّلْ، يا عبد الله — وليسامحني الأمير — فإني لا أحب المغالطة.»

فلما فعل — أعني العبد لا الأمير — دفعت يدي في خاصرة الخروف فلم أكد أفعل حتى ندت عن صدري صرخة من الطبق العالي الذي يوقظ الموتى في قبورهم، وإذا بي أدور على عقبي، وذراعي في الهواء وأصابعي مدلَّاة، وفمي ينفخ ويقول «فو. فو.» من لسع النار التي في خاصرة الخروف!

فبذمتي ليس هذا من الكرم في شيء! يجيئوننا أولًا بهذا الشاعر النجدي ينغص عيشنا ويشعرنا غصص الموت في حياتنا بل في شبابنا — فقد كنا جميعًا شبانا في الحجاز حتى زكي باشا — ثم يثنون بهذه الخراف التي حشوا بطونها جمرًا متقدًا، ويزعمون أنهم يطعموننا ويكرموننا! لماذا إذن كانت ألوان الطعام الأخرى لا تلسع ولا تحرق؟! أليس من الواضح أن هذا تدبير مقصود؟

ومال الأمير — بعد الطعام — إلى خيمته ليستريح، وملنا نحن إلى النخيل نحتمي في ذراه من الشمس، وارتمينا على الرمال وأشعلنا السجاير وذهبنا ندخِّن، وإذا بثلاثة من الجنود النجدية يَجْرُونَ إلينا واحدًا بعد الآخر ويسألنا كل منهم بدوره: «معك شيء من العكس؟»

فلم أفهم ما العكس الذي يطلبون شيئًا منه، وحسبتهم يعنون الدخان؛ فأخرجت علبة السجاير وعرضتها عليهم فتناولوا منها وعادوا يسألون عن «العكس» هل معنا منه شيء؟ فقلت لعله طعام أو شراب، وأشرت إلى خيمة المائدة وقلت: «هناك. لقد تركنا الخراف واللهِ سليمة أو كالسليمة، فعليكم بها إن كنتم تعنونها والأمر لله. أما إذا كان شرابًا ما تطلبون فهذا هو المساء يجري عند أقدامكم فانكفئوا عليه وعبوا فيه واكرعوا منه.»

فمضوا عني وهم يبتسمون وكأني كنت أخاطبهم باللغة الأردنية، وقد علمت بعد ذلك أن العكس معناه في اصطلاحهم الصورة، وكان الباعث لهم على طلب الصورة مِنَّا أن رياض أفندي شحاته أعد نحو ألف صورة — في حجم بطاقة البريد — لجلالة الملك ابن السعود، وفرق أكثر ما معه في وادي فاطمة، فتوهموا أن كل مصري مصوِّر ورياض أفندي أيضًا! وليتني كنته! إذن لاستغنيت عن هذا الكتاب ولما أصبحت أتجشم تعب التسطير والتحبير ونفقات الطبع والنشر.

ثم عدنا إلى خيمة الاجتماع وكانت غاصَّة، ولم يكن الأمير قد حضر، فطافوا علينا بأقداح القهوة في قعورها رشفة، فعدت إلى الاجتماع وظللت أستزيد حتى فر الساقي واختفى. ولما جاء الأمير استؤنفت الخطب ودُعِيَ زميلنا خير الدين أفندي الزركلي الشاعر السوري فأنشد قصيدة حماسية هي كل ما خرجنا به في يومنا — بل في رحلتنا كلها — من الكلام الرصين الجيد، فنهض أحد السامعين من البدو، وقد طرب، وخلع عليه سبحته، وهَمَّ آخر أن يخلع عليه عباءته، ولكن إخوانه — أعني إخوان الزركلي — خافوا إذا توالت الخلع أن ينوء بحَملها فصدوا الناس عنه وحموه، هذا الأ ... أعني الخير.

وإنا لكذلك إذا بزكي يدخل كالمدفع، وصوته يسبقه، ومن ورائه السيد عبد الوهاب نائب الحرم، فصفَّق له الناس فوقف يعتذر فقال كلامًا أرعبنا، ذلك أنه التفت إلى الأمير وانطلق يقول إن أهل الحجاز وعمال الحكومة يزعمون أن الأمن شامل ولكنه تبين أن هذا كذب، ويرى من واجبه أن ينبه الأمير إلى الحقيقة ويطلعه عليها ويصدقه فيها، فقد كان مستلقيًا في ظل النخيل فسَطَا عليه لص وسرقه.

وهنا وثب الناس إلى أرجلهم ساخطين مستنكرين، وقلت لجاري: لقد خولط الرجل! أما كان يستطيع أن يسكت؟ ألا بد من أن يعلن ذلك على هذه الأملاء كلها؟!

ووجمنا، ووددِتُ لو أني تأخرت وأدركت زكي باشا قبل أن يدخل؛ لأحمله على الصمت وأصده عن الكلام، غير أن ذهولنا لم يطُل، فقد اندفع زكي باشا يشرح الموضوع وإذا كل ما يعنيه أن السيد عبد الوهاب محدِّث ظريف وأنه سرق وقته وأنساه الاجتماع والخطباء بحلاوة حديثه وقدرته على الافتنان فيه!

وقد عنيت بأن أذكر هذه الحادثة التافهة لأني أريد أن أخص السيد عبد الوهاب بكلمة؛ فإنه بلا شك برع محدِّث وأظرف رجل عرفناه في الحجاز، وقد تعلم في الآستانة وأتقن التركية والفرنسية فضلًا عن لغته العربية، وعرف الأيام كما عرفها المتنبي، ولكنه ظل مع ذلك رجلًا عطوفًا فيه رفق ورحمة ودماثة ومروءة، وليس في الحجاز من لا يأنس بمجلسه ويشتهي حديثه، وهو على ظرفه وفكاهته كيِّس وقور ذو رأي أنضجته السن والتجارب وفِكر سددته المعرفة والاطلاع. ولو شئتُ لأطلتُ ولكن بحسبه هذا مني.

وأشير هنا إلى حادثة أخرى لها دلالتها؛ ذلك أن عميد وزراء الدول في الحجاز هو الوزير الروسي، وقد كنت أحسبه صينيًّا فإن به من أهل الصين مشابه، وقد وقف يشكر للأمير دعوته هو وزملائه إلى هذه الوليمة في الصحراء، وكان يتكلم بالعربية أو بما يظُنُّه لغةً عربية، ويرفع الشكر إلى الأمير بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن زملائه، ولم يُطِلْ فإن من العسير أن يفيض المرء في الكلام بلغة يخترعها على البديهة.

ولكن ممثل الحكومة البريطانية — القائم بأعمال مفوضيتها في جدة — لم يرضه أن يكون ممثل الروسيا هو عميد الهيئة السياسية والذي ينطق بلسان أعضائها؛ مخافة أن يتوهم العرب أن الروسيا مقدَّمة على إنجلترا ومفضَّلة عليها، فاستأذن الأمير في كلمة يلقيها ثم نهض فأعرب هو أيضًا عن شكره للحفاوة التي لَقِيَهَا والكرم الذي غمره، وقد أشرتُ من قبلُ إلى هذه المنافسة بين الروسيا وإنجلترا هناك، والحق أنها كانت أحيانًا تبدو لنا مضحكة، أو على الأصح ممتعة.

ولكل شيء آخر، حتى الخطب والقصائد، وقد تنفسنا الصعداء حين رأينا الأمير ينهض وقلنا هذا إيذان بالأوبة إلى جدة والراحة، ولكنهم خبَّئوا لنا مشهدًا لا أحسبني أنساه ما حييت، فقد ساروا بنا بين الجند النظامية إلى العراء، وهناك وقف الأمير وأومأ إلينا فدنونا منه ورأينا صفين من البدو النجديين ثيابهم شكول، وأكثرها زاهٍ برَّاق، وفي يسراهم البنادق وفي يمناهم السيوف مصلته وبين الصفين أربعة يروحون ويجيئون وأمامهم عبد يضرب بالدف، وهو يطول ويقصر، ويتثنى ويتعوج، ويميل يمنة ويسرة، ويقوم ويرقد ويتمرغ على التراب والدف في يسراه، وفي اليمين عصا صغيرة ينقر بها، والأربعة وراءه يترنحون، والصفَّان على الجانبين يتوثبان، والمسدسات والبنادق ينطلق منها الرصاص في الهواء، والسيوف تلمع، ومع ذلك كله غناء أو شدو أو تهريج لا أدري، بكلام اعترف سمو الأمير نفسه أنه لا يتبين ألفاظه، وقد أذكرني ما رأيت حلقات الذكر في مصر، ولكن الذاكرين في مصر يلهجون بأسماء الله، أما هؤلاء فقيل لي إن الغرض من رقصهم بالسيوف والأسلحة والدفوف تحميس الناس ليخرجوا للقتال.

قالوا: ولا موجب لهذا التحميس ولكنها عادة بدوية قديمة مثَّلوها لنا ليمتعونا برؤيتها، وكان الواحد من هؤلاء البدو ربما خلع عقاله و«حرامه» ورمى بهما في الهواء ورماهما برصاصة وتركهما يهبطان إلى الأرض، وقيل لي في تفسير هذا أن يخلع عليه الأمير جديدًا عوضًا عن القديم الذي أطلق فيه الرصاص ويُبقي العقال مُلقًى على الأرض حتى يقول له الأمير: ارفعه عنها. وهذا عندهم وعد — غير قابل للإخلاف — بأن يخلع عليه سواه.

وظللنا هكذا لا أدري كم. وأحرِ بنا أن لا نحس كَرَّ الوقت ومَرَّ الساعات ونحن نرى هذا المنظر الساحر ونسمع الرصاص ينطلق أمامنا وفوق رءوسنا، ولا أكتم القارئ أن الخوف لم يفارقني لحظة، وأني لم أذهل عن نفسي ثانية واحدة، وأعترف أني كنت أخشى أن يصيبني سوء — أعني رصاصة — وأشهد لنفسي بالأدب؛ فقد كنت لا أزال

كلما تنحى ممثل إنجلترا ليُفسِح لي مكانًا إلى جانبه في الصف الأول أؤكد له أني أستطيع أن أرى من تحت إبطه، وأني لا أقبل في حال من الأحوال أن أحاذيه أو أرفع نفسي إلى مقامه، فكان يشكر لي تواضعي ويؤكد لي أنه سعيد بجيرتي، وأنه معجب بذلاقة لساني وقدرتي على الرطانة، فكنت أقول له: «يا سيدي الوزير، إني عربي الأصل في الحقيقة وهذه البلاد بلادي في الواقع، فأنا لست هنا ضيفًا ولا يجوز لابن البلاد أن يسبق الضيف أو يتقدم عليه.»

وأتراجع خطوة، وأجعله أمامي، وأتخذ منه — بهذه الحيلة — مِجَنًّا دون الرصاص الذي أتقي أن يصيبني، وقد صارحتُه بالحقيقة ونحن راجعون وقلته له: «إن إنجلترا غنية بالرجال فهبك قُتِلْتَ فإن إنجليزيًّا يروح وآخر يجيء، وليس الذاهب بأفضل من الآتي، ولكنه ليس في مصر — ولا في جزيرة العرب على ما يظهر — سوي مازني واحد، وهذا غريب؛ فقد كنت أتوقع أن يخرج لاستقبالي والحفاوة بي وفد من عشيرتي، ولكني لم أسمع أن واحدًا من بني مازن انحدر إلى الحجاز لهذا الغرض، وأُسِرُّ إليك أني أخشى أن يكون ابن السعود قد فتك بهم.»

فدهش وقال: «لماذا؟»

فخفضت صوتي جدًّا، وشببت عن الأرض لأهمس في أذنه: «إن قومي — عفا الله عنهم — من أهل التخفيف.»

قال: «ماذا تعني؟ فإني لا أفهم.»

قلت: «أعني أنهم من ذوي المروءات.»

وقال: «وهل يفتك بهم ابن السعود لأنهم من ذوي المروءات؟!»

قلت: «إن ابن السعود يكره هذا الضرب من المروءة.»

قال: «كيف؟! لماذا؟!»

قلت: «إن اللغويين أعداء قومي — ألد أعدائهم — يسمون المروءة قطعًا للطريق، والتخفيف عن الناس سطوًا عليهم، وابن السعود وهابي أي على مذهب اللغويين، سوء تعبير أو خطأ في الوصف كما ترى. وأخشى أن يكون قد جر على قومي وبالًا، فهل لك في حلفي؟»

قال: «حلفك؟»

قلت: «نعم، تحالفني على ابن السعود، إذا ثبت أنه أوقع بهم.»

فالتفت إليَّ بسرعة وقال: «أتتكلم جادًّا؟ فلست أكتمك أني مستغرب حديثك، وأني لا أكاد أفهم شيئًا!»

وهنا أدركَنا واحد فوضعت أصبعي على فمي، ولكن «الواحد» لمحني فقال للوزير: «أنا واثق أن حديث المازني قد حيرك.»

فقال الوزير — أو القائم بأعمال الوزير على الأصح: «هذا صحيح، لقد كاد يجرني إلى حرب ابن السعود من أجل قضية لا أفهمها.»

فقال «الواحد»: «ألم أقل لك؟ فماذا كان يقول؟»

فتركتهما يتذكران وارتددت إلى زملائي فصاحوا بي: «يا أخي أين كنت؟»

قلت: «لماذا؟ ألست أمامكم؟»

قالوا: «إن الأمير قد تفضل ودعانا إلى خيمته ليودِّعنا على انفراد، ولنا ربع ساعة نبحث عنك.»

قلت: «حسنًا فعلتم، تفضلوا.»

وسرت أمامهم إلى الخيمة ثم تنحيت لزكي باشا فإن شيبته أضوأ من شيبتي، وأنا رجل لا يكابر في الحق، فتلقانا الأمير — ومعه فؤاد بك حمزة مدير الشئون الخارجية — بالتأهيل والترحيب، وأعرب عن سروره بزيارتنا للحجاز ويقينه أنها ستؤدِّي إلى توثيق العلاقة بين الشعبين الشقيقين.

فقال زكي باشا: إن العادة تثبُت من مرة واحدة. فقال سموه: إنها لكذلك، وأني لأرجو أن أراكم في كل عام على الأقل مرة.

وذكر بعضنا المدينة وأنه يحب زيارتها، فقال سموه: إن الأمر في ذلك لكم، فإذا شئتم أن تتخلفوا أيامًا أخرى فإن الزيارة سهلة، ولكنها تكون شاقة ومتعبة إذا أردتم أن تدركوا الباخرة التي تبارح جدة يوم السبت، فاختاروا ما شئتم.

فشكرنا له ظرفه وحسن مجاملته وكرمه، واعتذرنا بأن أعمالنا في مصر لا تسمح لنا بطول التغيُّب، ورجونا أن تتاح لنا في العام المقبل فرصة العود إلى مثل هذه الزيارة، وأفضنا في الإشادة بما شاهدنا من دلائل التقدم وأمارت الإخلاص في ترقية الأحوال وتحسين الشئون، وقلنا وقيل لنا كلام كثير نسيت أكثره، ثم تفضل سمو الأمير فخرج معنا من الخيمة ليرسمنا رياض أفندي حافِّين به.

ثم سلَّمْنا وعُدْنا إلى جدة وكان هذا ختام الحفلات الرسمية.

في بيت العويني

في بيت العويني عرفت العويني، أعني أني استطعت أن أُلِمَّ بطرف من الصفات والخلال التي أعانته على التوفيق في حياته، وهو على ما علمت من أسرة سورية، وكانت له تجارة رابحة، فلما قامت الثورة السورية أمدها بشبابه وماله وتدبيره، وكان أشبه بزعيم محلي، فقُبِضَ على طائفة من رجاله، قال محدثي — والعهدة في الرواية عليه: فأصبح يومًا فإذا نساء الحي يصرخن ويولولن ويندبن ويصحن: «يخرب بيتك يا عويني.»

فخيف أن يفضي ذلك إلى اعتقال الباقين وإلى إحباط التدبير كله، فتولى العويني الإنفاق على السجناء وعلى أهليهم الطلقاء — أمهاتهم وزوجاتهم وإخوانهم ... إلخ — وأحكم أمره وسارت الأمور على خير ما يرجى في مثل هذه الأحوال، وكانت الأُسرات التي اضطر أن يعولها كثيرة وفقيرة، فأرقته واستنزفت موارده فلم يسعه إلا أن يصفي تجارته — أو ما بقي منها — وأن يرحل.

فقصد إلى الآستانة وفي مأموله أن يبدأ حياته من جديد، ومكث هناك شهورًا ثم ألفى نفسه يُنفِق ولا يَربَح، فاحتمل حقائبه ومضى إلى جدة وأنشأ فيها وكالة لتاجر سوري كبير، وظل كذلك ثلاث سنوات حتى استطاع أن يقف على قدميه وأن ينشئ لنفسه تجارة مستقلة.

وهو يستورد المتاجر بالجملة ويفرقها على التجار، فإذا جاء يوم الجمعة أنقدوه أثمان ما باعهم، وقد أخبرني محدثي — ولي به ثقة — أن متوسط ما يجمعه من التجار

في كل يوم جمعة يبلغ أربعة آلاف جنيه، لا أدري كم يكون ربحه منها، وقد ذكرت ذلك لأُعِين القارئ على تصور مبلغ النجاح الذي أحرزه والذي يستحق أضعافه، لنشاطه ودُءوبه وكَدِّهِ، وقد كنا نفتح عيوننا في الصباح ونتثاءب ونتمطَّى على حين يكون هو قد لبس بذلته «الإفرنجية» ولا ينقصه إلا أن يضع على رأسه الحرام الحريري الأبيض والعقال.

ولولا وجودنا وكوننا ضيوفه لكان قد خرج إلى عمله قبل ذلك بساعات، ولكنه كان مضطرًّا أن يتأخر حتى يُفْطِرَ معنا، وكنت أعجب بلباقته وكياسته وحذقه في حثنا على النهوض والإفطار من غير أن يشعرنا أنه قلق على عمله وأنه يريد أن يخرج ليباشره.

وكان العويني يبدو لنا كأنه كل شيء: الحكومة والرعية جميعًا؛ فهو الذي يعهدون إليه في تنظيم كل أمر ويكلون إليه الإشراف عليه ويعتدونه مسئولًا عنه، فما احتجنا إلى شيء إلا قلنا: أين العويني؟ ولا أرادت الحكومة شيئًا إلا قالت: هاتوا العويني. ولا ناقة له في ذلك كله ولا جمل، ولكنه النشاط وحسن التدبير والسرعة الرائعة في إنجاز الأمور وحضور الذهن واتقاد الخاطر.

وكان يساكنه شاب آخر في مثل سنه أو أقل — بل هو أصغر على التحقيق — اسمه إبراهيم أفندي شاكر، حسبناه أول الأمر أخاه ثم عرفنا أنه صديقه ووكيله، وهو حجازي صميم، كان سكرتيرًا خاصًّا للملك السابق على بن الحسين، وإبراهيم أفندي كصاحبه العويني في النشاط والرقة، ولكنه ساكن وادع الطائر طويل الصمت، يمر بك كالنسيم الواني، والنظرة إلى وجهه تنعش الروح وتحيي النفس، والجلوس معه يشيع في صدرك الطمأنينة والإحساس بالراحة التامة، وهو مع سكونه دائم الحركة لا يكل ولا يمل ولا يتأفف ولا يكون إلا مفتر الثغر.

وفي بيت العويني أيضًا كان من حظي أن عرفت خالد بك الحكيم، وكان يلبس جبة وقفطانًا، وعلى رأسه الحرام والعقال، وهو رجل ضخم عليه مهابة ووقار، وفي عينه الْتماع عجيب ولحديثه سِحر، وهو سوري من كبار المجاهدين، تخرَّج في المدرسة الحربية في الآستانة وخاض حروبًا شتى في أوروبا وآسيا وإفريقية — طرابلس — وكان مع جيش ابن السعود الذي فتح الحجاز، ويسمونه «الغطاس» لأنه يكون اليوم معك وتفترقان على أن تلتقيا غدًا، وإذا به غدًا في الشام أو اليمن أو بمباي، ولا يدري سواه أي طريق سلك، ولا علم لأحد بما كان ينوي، وهو بكل بلد أعرف من أهله وأنفذ بصيرة في حاضره ومستقبله، والعَشرة من أمثاله يعادلون أمة، ولقد لقيتُه بعد ذلك في مصر

فما ازددت إلا إكبارًا له وإيمانًا به، إكبارًا لقوته الصامتة وجلَده على الحياة وتواضعه المحبَّب وإخلاصه وصراحته، وإيمانًا بعظمة روحه.

وفي بيت العويني جاءتنا هدايا الأمير، وكان صديق لنا قد أَسَرَّ إلى أننا سنتلقى هدية، فسألته عنها أي شيء هي؟ قال عباءة وعقال وما إلى ذلك. فقلت: إذا كانت هذه هي الهدية فمرحبًا بها وليعجلوا، فسألني: «وإذا كان هناك غيرها؟»

قلت: «ماذا تعني؟»

قال: «أعني أن من عادة العرب إذا حل بهم ضيف أن يُهْدُوا ويَهَبُوا ويَصِلُوا.»

قلت: «إن من المعقول أن تكون هذه عادتهم؛ فإن البدوي في الحقيقة فقير معدم، وطلبته الطعام والكسوة والمال، فطبيعي أن يكرم العرب الضيف أي أن يطعموه ويكسوه ويصلوه، ولكنَّا لسنا بدوًا. وإني لأشتهي أن تكون لي عباءة وعقال، ولكن هذا ليس لأني عارٍ مفتقر إلى الكسوة، بل لأني أعتدُّ هذه الثياب قنية تستحق أن تُدَّخَرَ، أما الصلة أي المال فبالله عليك إلا ما صرفتهم عنه، لئلا يحرجونا ويحرجوا أنفسهم، فإني لا أرضى أن أخذ مالًا لا أستحقه، ثم إني أستحي أن أرد عطاء أمير، ولكني سأكون مضطرًّا أن أرده لأنه لا يسعني إلا أن أعده في مثل هذا الموقف رشوة أربأ بنفسي وبالحكومة السعودية عنها، وقد بالغت الحكومة في إكرامنا وأنفقت على رحلتنا هذه بضعة آلاف من الجنيهات، ودفعت عنا حتى أجور التلغرافات التي بعثنا بها إلى صحفنا، وهذا كله فوق الكفاية، ثم إن ما شاهدناه كان له وقع جميل في نفوسنا فلا يفسدوا هذا الوقع بالرشوة، وأنا مقترح عليك بديلًا منها: فإني أشتهي بلح المدينة المشهور، فإذا كان يسعهم أن يخاطبوا المدينة بالتليفون لترسل إلينا في ينبع قليلًا من البلح، فإن هذا يكون خليًّا من كل مال.»

وقد استشار صاحبي زميلًا آخر لي فنصح له بمثل ذلك، فعاد إليهم صاحبنا وحملهم على الامتناع عن وصلنا بالمال، وعلى الاكتفاء بالكسوة العربية والبلح. والكسوة عبارة عن معطف مصنوع من الكشمير وعباءة سميكة من الصوف الجيد محلاة ومزركشة بما لا أدري، وعقال من الحرير مفضض وحرام من الكشمير، وقطعة من السكروتة. وقد احتجت أن أقصر هذه الثياب لأستطيع لبسها والانتفاع بها.

وفي ينبع ونحن عائدون أبى الأمير إلا أن يستقبلنا — كأنَّا كنا مثله أمراء — في سرادق عظيم أُلْقِيَتْ فيه الخطب وأُنشِدَت القصائد، ثم تغدينا وأكلنا خرافًا حقيقية لا شك فيها ولا في رءوسها ولا في أمخاخها، وبلغ من حفاوتهم بنا أن كبار القوم هم الذين يتولون خدمتنا على الطعام.

ثم عدنا إلى الباخرة حيث وجدنا بلح المدينة في «صفائح» بعددنا، بل بأكثر من عددنا، ففرقنا ما زاد واحتفظنا بأنصبتنا، ورسونا في الطور ساعات وطفنا به وشاهدنا ما فيه من البنى والمعدات الوافية، ثم عدنا بسلامة الله.

ولكن رحلتنا ونحن عائدون كانت فاترة؛ فقد كان ينقصنا نبيه بك العظمة وخير الدين أفندي الزركلي، فقد تخلفا في جدة.

خاتمة

العرب أمتان في أمة، أو هم على الأصح ثلاث أمم: واحدة تعيش في الحواضر على نحو ما تعيش أمثالها في كل بلاد العالم، وهذه خليط من شعوب شتى، فيها المصري والسوري والفارسي والهندي والجاوي ... إلخ، وقد لقيت في جدة ومكة كثيرين من التجار والأعيان علمت منهم أن أصولهم مصرية وأن لبعضهم في مصر أقارب ومصالح وأملاك، وحدثني كبير في الحكومة السعودية أنه عني بالبحث والتنقيب عن أجناس الأهالي فعرف نحو مائتي أسرة مصرية استوطنت الحجاز واستقرت فيه من زمن بعيد أو قريب، ولكن الشبان المصريين هناك قليلون، وهم في حكومة الحجاز يُعَدُّونَ على الأصابع؛ ولهذا عدة أسباب: أن السوريين وهم أقرب إلى بلاد العرب وأوثق بها صلة زاحموهم فغلبوهم، للسوريين آمال قومية يعتمدون في تحقيقها — في جملة ما يعتمدون عليه — على السعوديين، وقد انتفع السعوديون بالمهندسين والضباط وغيرهم ممن تلقوا علومهم في معاهد الآستانة وشردتهم عن سوريا الأحوال السياسية، ودفعت بهم مساعيهم القومية إلى الصحراء. وبين السوريين من ليسوا من الأوساط العاديين، وإنما هم من ذوي الصلابة وأولي العزم والقوة؛ فلا بدع إذا غلبوا المصريين القليلين الذين ذهبوا في السنوات الأخيرة فلم يجدوا ما كانوا يأملون من الغنى السريع أو الرزق الوافر أو غير ذلك فعاد أكثرهم، ومصر أرقى حضارة من سورية، والترف فيها أوفر والحياة فيها أنعم؛ ولهذا كان السوري لا يحس في الحجاز أنه نزل عن شيء من مظاهر حياته على خلاف المصري الذي لا يجد هناك ما خلَّفه في وطنه من المناعم والملاهي.

على أني لست في مقام التقصي للأسباب التي أدت إلى ضعف العنصر المصري في الحكومة الحجازية، وإنما أردت بما ذكرت أن أبين أن لهذا أسبابًا معقولة.

والأمة الثانية: القبائل المقيمة على المياه الثابتة وهذه تشتغل بالزراعة إلى حَدٍّ ما، وبالرعي وبالقليل من الصناعات الساذجة، ومواطن هذه القبائل ثابتة. ومحلاتها وعشائرها وبطونها وأفخاذها تكاد تكون مضبوطة الحدود على العموم.

ومن هذه تخرج أمة ثالثة هم البدو الرُّحَّل الذين لا يستقرون في مكان ولا يزالون يتحولون من هنا إلى هناك.

وقد أدرك ابن السعود بفطرته الزكية أن هذه البداوة هي آفة الأمة العربية، وعلمته التجارب أن البدو لا خير فيهم في حرب ولا في سلم. فهم في الحرب لا يكادون يبصرون الجمال النافرة من قعقعة السلاح أو صوت الرصاص حتى ينفضوا أيديهم من القتال ويذهبوا يَعْدُون وراء الجمال وما إليها ليغنموها، ومن أجل هذ كان يعتمد في حروبه على الجنود النظاميين المدربين لا على البدو. وكان يقدم البدو في المعارك ويضع جيشه النظامي وراءهم ليمنع البدو أن يفروا وراء المغانم والأسلاب قبل أن تنتهي المعركة. أما في السلم فهم عالة عليه وعلى حكومته لأنهم لا يُحسنون صناعة أو زراعة. وما دام للواحد منهم راحلة فهو ينطلق بها إلى حيث تنازعه نفسه ولا يطيق أن يستقر في مكان؛ ولهذا فكر في تحضيرهم وإخراجهم من هذه البداوة فانتقى لهم المواقع التي يكون فيها الماء وحفر لهم الآبار وأوسعها أو أصلحها، وألزمهم أن يبيعوا خيلهم أو جمالهم وأن يشتغلوا بالزراعة والصناعة ليتسنى له أن يجعل منهم أمة وأن ينظم أمورهم وأن يقيم الحكم فيهم على قواعده الصحيحة وأن يعلمهم ويثقفهم. وتسمى هذه المواقع التي اختارها لهم وألزمهم الإقامة بها والعمل فيها «الهُجَر» بضم الهاء وفتح الجيم جمع هجرة، وذاك أعظم عمل يباشره وأجل مهمة يزاولها.

وعلى هذا النحو العملي يحل ابن السعود مشاكله العديدة؛ فالحجاز مثلًا — على حضارته نسبيًّا — صحراء جرداء، والماء أكبر ما يحتاج إليه وأول ما ينقصه، وقد كانت فيه آبار وعيون كثيرة هدمها الأتراك وخربها الأشراف — كُلٌّ بدوره — وكانت قرب جدة بئر الوزيرية، وهذه وحدها كانت تكفي جدة، وقد ذهبت معالمها ودرست آثارها؛ ولذلك جاءت الحكومة لينبع وجدة بآلات لتقطير مياه البحر، واشترت أخيرًا آلة كهذه لجدة تقطر في اليوم مائة وخمسين طنًّا من الماء، وأصلحت الصهاريج التي يخزن بها مياه الأمطار، ومضت تجدد الآبار الدارسة وتكشف عن العيون التي سُدَّتْ أو خُرِّبَتْ، ووجدت أن الآبار قليلة الغناء لأنها تجف وتنشف في بعض الفصول، فاتخذت الآبار الأرتوازية، وجلبت الآلات لاستنباط الماء من جوف الأرض، ومما يذكر في هذا الصدد أنها استدعت

اثنين من المهندسين المصريين لاختيار المواقع التي يحسُن اتخاذ الآبار الأرتوازية فيها، غير أن معداتهما لم تكن كافية فعادَا، وقد أوصت الحكومة السعودية باستدعاء اثنين من المهندسين الغربيين، والمرجح أن يكون اختيارهما ممن لهم خبرة بالجزائر لتشابه طبيعة البلدين.

وعملت الحكومة على إصلاح عين زبيدة بإنشاء خزان ومد أنابيب، وهي تبني خزانًا كبيرًا آخر لجمع مياه المطر يسع مائة ألف طن، وموقعه لا يتطلب نفقات كبيرة لأنها اختارته في مكان تحيط به الجبال من ثلاث جهات فالحاجة لا تدعو إلى البناء إلا من ناحية واحدة.

ومن أجل الماء تعفي الحكومة كل الآلات التي تُتَّخَذُ لاستنباطه من الرسوم الجمركية. وكذلك آلات الزراعة، بل هي تقسط أثمانها على الأهالي تشجيعًا ومعاونة لهم. ومن أجل الماء تُعنَى بالتعليم الهندسي؛ ولذلك أرسلت إلى الآستانة طالبًا يتعلم الهندسة، وبعثت إلى برلين بآخر. والحجاز كمصر ينبغي أن يكون بلاد الهندسة والمهندسين البارعين.

ولما كانت البلاد صحراء والمسافات فيها طويلة؛ فقد اتخذت الحكومة السيارات وشجعت على اقتنائها، وقد دخل السعوديون الحجاز وليس فيه سوى سيارة واحدة يملكها الملك حسين السابق، وفي الحجاز الآن ألف سيارة ومائتان. والبريد ينقل بين جدة ومكة وبين جدة والمدينة على السيارات مرتين في اليوم. والشرطة يتخذونها للمرور والعسس، والجند كذلك للانتقال والحمل. وقد بدأ استعمال السيارات بين الحجاز ونجد، ولا بد لذلك كله من الأمن وإلا فسد الأمر كله. ومن هنا قَسَا ابن السعود في أول الأمر، فصار يقطع يد السارق فازدجر اللصوص وقُطَّاع الطرق، وأدَّب العشائر التي تسطو على الحجاج، فساد الأمن وصار مضرب الأمثال بلا أقل مبالغة، وقد رأيت بعينيْ رأسي شواهد رائعة وأدلة مدهشة.

ومن أجل طول المسافات وتقاذف الأبعاد اتُّخِذَت الطيارات واللاسلكي فضلًا عن التلغراف السلكي المعتاد، وللَّاسلكي الآن أربعة عشر مركزًا. وقد أنشأت الحكومة مركزًا جديدًا في جزيرة دارين، وهم ينشئون شبكة لاسلكية لها ثلاثة عشر مركزًا ثابتًا للتلغراف والتليفون اللاسلكي؛ وذلك لوصول الرياض ومكة والمدينة وكل مركز في الألوية والأقضية.

ولم يتخذوا القُطُر البخارية لأن تكاليفها باهظة لا تقوى عليها الميزانية، ولأنهم من ناحية أخري يحرصون على أن لا يقطعون أرزاق الجَمَّالة، على أنهم فكروا في إنشاء خط كهربائي بين جدة ومكة، وأصلحوا الطرق وعبَّدوها وكبسوها بواسطة «وابور الزلط» كما نسميه في مصر.

ومن أجل الحج واتقاءً لتفشي الأمراض أنشَئوا في مكة مستشفى يسع مائتي مريض، وجعلوا فيه أقسامًا للجراحة والأمراض الباطنية وغير ذلك، ولهم الآن عشرون طبيبًا حجازيًّا، وأقاموا محطة للحجاج في بحرة بين جدة ومكة وفيها مستشفى، فضلًا عن المحطات الأخرى للراحة، وأصلحوا الكرنتينة ورتَّبُوا دوريات صحية وبنوا المظلات في عرفات ومِنَى وجهزوها بالماء والثلج وأقاموا في كل منها طبيبًا وممرضًا.

والحكومة تلقِّح الناس ضد الجدري، وقد أنشأت معملًا للحصول على مصول الجدري والكوليرا والتيفوئيد، وأرسلت بعثات طبية للخارج، واستعارت طبيبًا هولنديًّا وبدأت توسع مستشفى جدة.

وقد حُقِنَّا بمصلي الكوليرا والتيفوئيد قبل سفرنا من السويس، ولكن هذه الأمراض لا أثر لها هناك، على الأقل في هذه الأيام. وعلى أن مصلحة الصحة المصرية تعلن منذ سنوات أن الحج نظيف.

أما من حيث التعليم فللحجاز بعثةٌ في مصر مؤلَّفة من خمسة وعشرين تلميذًا وطالبًا فضلًا عن البعثات الهندسية والطبية التي أشرنا إليها. وقد أنشأت الحكومة مدارس أولية وابتدائية في جدة ومكة والمدينة وينبع وغيرها، ومدرستين ثانويتين في مكة وأخرى في المدينة، وأربعة في جدة. وهذا غير المعهد السعودي في مكة وغير مدرسة المطوفين التي أنشأتها كما أنشأنا في مصر مدرسة الأدِلَّاء والتراجمة، وغير المدارس الدينية التي لا تعد مدارس حديثة.

وبهذه الطريقة العملية يحل ابن السعود مشاكل بلاده، ويعالج ترقيتها، وقد تبدو الخطى قصيرة ولكنها مناسبة لحالة البلاد وتعداد أهلها. والمال هو العقبة الكبرى ولكن الحكومة لا تتعجل ولا تذهب إلى إثقال كاهل الناس بالضرائب من أجل ذلك، وشعارها أن العجلة من الشيطان. ولكن خطاها وطيدة مستمرة كخطى السلحفاة التي سبقت الأرنب، والأرنب عندي هو مصر. ولقد عدت من الحجاز وأنا مقتنع بأن مصر إذا ظلت تتخبط وتولي الشئون السياسية هذا الحظ الباهظ من رعايتها على حساب المرافق الجدية والمراشد الحيوية؛ فسيسبقها الحجاز بلا أدنى ريب.